

آفاق المحنة

در حبيب المصاوي



مَشُورَات

جَامِعَةُ قَائِلَاتِ

بَنْغَازِي



الإهداء

أستاذي الفاضل ، سليمان [REDACTED]

تستري القطن إلى لحن الأغيار عزة استعلاء ، هتير

قدرها - عن علم - نزر قلال ، وبها بها - عن جهل -

أشباح رجال

لكبك حين يلحن الآخرون في حضرتك ، تكفي

جاء وخافه أن يشي من لم يتبعه بمراد ما قد يكونوا

عند بعد أن تكون قومت ما أصوح منه ، حتى ليخيل

لسامعك أنك إنما تبدى الإعجاب ببيانهم ..

إلى مثلك تهدي درر الأسفار ، فكيف تستكثر عليك

بضعة أفكار ، ما كان لصاحبها أن يفصح عنها - كما

أنصح عنها - لولا ما علمته من أستاذي

فأليك ، خاتيك ، يحسبك المستشرق في سريره قلب

أهدي هذا الكتاب ، اعترافاً بقدرك ، وجرافاً بفضلك

الفهرس

3	الإهداء
5	استهلال
9	اعتراف
11	الفصل الأول : مفهوم الاحتمال
37	الفصل الثاني : قول وقائل
51	الفصل الثالث : شبه الماصدقات
63	الفصل الرابع : نبذ المعرفة
73	الفصل الخامس : محنة اللاأدرى
83	الفصل السادس : تطور العلم
91	الفصل السابع : العلم والفلسفة
103	الفصل الثامن : هاجس الوضع
113	الفصل التاسع : بغى الكلام
137	الفصل العاشر : الجائز والمباح
147	خاتمة الكتاب
157	ثبت المصادر
160	الفهرس

استهـرو

فى وسع المرء أن يحمّل لفظ الاحتمال ما عنّ له من دلالات، فعلى المستوى العلى، لا حد يحد الاحتمال سوى قصور الخيال، وعلى المستوى المنطقى، لا حد يحد الاحتمال سوى قيود المحال، والمحال مفهوم لا تتعين ماصدقاته إلا فيما يختص بخصائص متناقضة، ولذا فإنه غير قابل حتى لجرد التصور.

من هذا المنظور، يحتمل كل أمر يكون بمقدور أى خيال تصور إمكان تحقيقه، ولهذا السبب، يتجذر مفهوم الاحتمال فى شتى أوجه نشاط البشر؛ فى الفن بمختلف ضرويه، وفى الفلسفة على تنوع نزاعاتها، وفى العلم على رفضه الصريح لكل ما لا يرتد إلى أصول حسية.

هكذا يتسنى للفنان أن ييـوح - عبر ما كان يمكن أن يكون - عن قدراته على أعمال ملكات التخيل والحدس والوجدان، ويتسنى للفيلسوف أن يتخذ من مفهوم الاحتمال مطية يرتاد من على صهوتها مجاهل ما كان يمكن أن تكون عليه خبرات البشر لو كانت قدراتهم الذهنية مغايرة لما هى عليه، قدر ما يتسنى للعالم أن يحقق به تلك الوثبة التى يقفز عبرها من مجموع ما يلاحظ من ظواهر إلى الفروض التى يحدس قدرتها على استكناه ما سيحدث منها.

والواقع أن تمرد المرء على ثوابت العقل والعرف والعادة لا يتم إلا بعد أن يكون فى وضع سيكولوجى يتهىأ بمقتضاه لقبول ما كان مجرد احتمال منطقى، وما الإبداع الناتج عن حركات التمرد الأصلية التى تمارس فى مختلف أوجه نشاط البشر إلا تحقق عينى لذلك الاحتمال؛ لكنه تحقق يتطلب قدرات فائقة، ولا يقدر عليه إلا نزر يسير منهم؛ فليس كل محتمل بقابل لأن يعبر عن إبداع أصيل، ولولا المشقة - فيما يقول المتبنى - ساد الناس كلهم.

لا جدوى إذن من الحديث عن الإبداع فى مقام لا يتسع لنقاش الأمر المتعلق بتحديد طبائع تلك الإمكانيات التى تستحق عناء التحقق، وكما يؤكد نيكوس كازانتزاكى فى سيرته الذاتية: «لا شئ مؤكد مسبقاً فى أى عمل إبداعى؛ فقد يكون المستقبل كارثة شاملة، وقد يكون حلاً وسطاً، لكنه قد يكون أيضاً انتصاراً للنفس الخلاق» (كازانتزاكى (2) ص 143).

على ذلك، فثمة من يرى فى مفهوم الاحتمال آية - أى آية - على قصور قدرات البشر ومحدودية معارفهم؛ فأن تقرر احتمال حدوث أمر هو أن تعجز عن الجزم بوقوعه، وأن تعجز عن الجزم بوقوعه هو أن تدعن للجهل بكنهه. ولأن العلاقات العلية التى تقنن مختلف ظواهر الكون تقوم - وفق وجهة النظر هذه - بشكل يحتم حدوثها على نمط لا بديل له، فإن الحديث عن الاحتمال - فى السياقات الإستمولوجية - إنما يعبر عن عدم دراية البشر بطبائع تلك العلاقات. هذه هى الحتمية المنطقية (Physical determinism) التى أخذ بها فلاسفة من أمثال لابلاس وديكارت، ورفضها العلم المعاصر دون أن يالو فلاسفة هذا العلم جهداً فى تبيان مترتبات رفضها المؤسسية.

ومهما يكن من أمر، فإن الاحتمال يتبوأ فى علم المنطق الاستقرائى منزلة خاصة، ففى غياب نظرية تحدد احتمالات النتائج - فى حال توفر أشراف بعينها - لاسبيل لحسم الجدل الممكن قيامه حول مشروعية أى برهان استقرائى. ولأن عقلانية الاعتداد بأية نظرية علمية - كعقلانية القيام بأى سلوك - رهن بحسم مثل ذلك الجدل،

يتخذ مفهوم الاحتمال فى هذا السياق صبغة معيارية خالصة (Pure normative character). بكلمات أخرى، فإن العجز عن تعيير الاحتمال بطريقة تمكن من صياغة قواعد استقرائية صحيحة (Sound inductive rules) يستلزم بدوره العجز عن تسويغ أوجه النشاط العلمى كافة، قدر ما يستلزم العجز عن التمييز بين السلوكيات العقلانية والسلوكيات الرعناء.

فضلاً عن ذلك، فإنه بمقدورنا اعتبار معارف كل واحد منا بوصفها معبرة عن قضايا يتم عبرها تحديد ما يحتمل حدوثه، فمعارفنا - على حد تعبير كارل بوبر - تحدد «آفاق توقعاتنا» (Our horizons of expectations)؛ وما الحديث عن «التكيف» فى سياق علم الاجتماع وعلم النفس إلا حديث عن السبل التى يستحدثها البشر - جماعات ووحداً - كيما يتسنى لهم تعديل آفاق توقعاتهم لجعل سلوكياتهم متسقة وما ترغبهم البيئة والأعراف والحاجات السيكلوجية على الإذعان إليه؛ وما الحديث عن «التحقق الملاحظى» (Observational verification) فى سياق المنهج العلمى إلا حديث عن وجوب اختبار آفاق توقعات العلماء التى تتعين عادة فيما يضمنون من فروض ونظريات؛ وما الحديث عن «النماذج المثلى» (Paradigmatic exemplars) و«التحولات الجشتالتيه» (Gestalt shifts) و«تعدد المعايير الثقافية» فى سياق علم تطور الأفكار، إلا تأكيد على اختلاف توقعات البشر وعلى الصعوبات السيكلوسوسيولوجية (Psycho-sociological difficulties) التى تحول دون اتساقها.

هكذا نكتشف فى دلالة مفهوم آفاق التوقعات - الذى يعول بشكل مباشر على مفهوم الاحتمال - سبيلاً ملائماً للإفصاح عن مختلف النزعات النفسية والاجتماعية والمنهجية والفلسفية، وهكذا تنتشظى محاور هذا المفهوم الأخير لدرجة يكاد معها كل نشاط بشرى أن يجد له فيه موطئ قدم.

هذا بالضبط هو مسوغ تعدد محاور هذا الكتاب، على كونه يعول على مركز عود ثابت ومستمر، ولعلنى لا أذيع سرّاً إن قلت إن فصوله قد كتبت فى مناسبات مختلفة

وأزمة متباعدة، فالقارئ لا محالة سيتحسس من عناوينها أنه لا يعدو أن يكون جمعاً
لشذرات لا يجمع بينها سوى كونها قد ألفت من قبل شخص واحد، ولا يوحد نهجها
سوى كونه ذا صبغة فلسفية خالصة.

على ذلك، ففي وسع القارئ المتعاطف أن يستمع - بقليل من التركيز - إلى نغمة
سائدة، ويمقدوره أن يستبين - بحد أدنى من الجهد - كيف يتواتر الحديث عن «آفاق
المحتمل»، وكيف يتم التوكيد على ثراء هذا المفهوم وقدرته المتميزة على التعلق بأوجه
نشاط البشر كافة. وفي واقع الأمر، فإننى إخال - ونفسي توجس خيفة من الشطط - أن
مفهوم الاحتمال يتعلق بشكل أو بآخر ببشرية البشر، وأن الحديث عنه فى سياق
الحديث عن كائنات أقل أو أكثر قدرة منهم يعوزه المعنى؛ فليس ثمة محتمل فى حيوات
الحيوان، وليس ثمة محتمل عند ذلك الكائن الكلى العلم والقدرة؛ لقد خلق الله المحتمل
يوم خلق الإنسان!

* * *

اعتراف

أعترف أمامكم - فى غير ما خجل - بأننى عادة ما أقع فى غرام اللفظة على حساب وضوح الفكرة؛ وأعترف أمامكم - فى غير ما أسف - بأننى على استعداد تام للتضحية بالفهم إذا كان مطلبه قدراً من الإيضاح يتخذ من الكلمات الشائعة سبيلاً للإفصاح. وإذا كان الفنان الحقيقى يضحى بالحقيقة قرباناً للجمال، فما لى لا أضحى بالفهم تزلفاً إليه؟

وكأنى بالفكرة - حين أعمد إلى الوقوع فى ذاك الغرام - تدافع عن حياض ألفاظها بواق من اللبس وستر من الإبهام. ويعلم الله - وبعض الأصدقاء - أننى أكابد ما أكابد بحثاً عن ألفاظ بكر لم يطمثهن من قبل لسان أو جنان، مخافة أن أقول ما أقول فى إزار حائل اللون، أو إهاب اعتادت - فازدرت - رؤياه العيون.

لكل هذا ترانى أتوشح بالتلميح إذا كان فى التصريح أدنى أذى لذلك الحس البلاغى المستسر فى سرائرنا؛ ولكل هذا يعترينى شعور غامض بأنه يتعين أن تكون للفلسفة لغتها التى تختص بها دون سائر الأنشطة اللسانية. فى الفلسفة ثمة شئ مقدس لا أدرى له كنهها، لكننى أجِد فى الوضوح المبتذل ضرباً من ضروب انتهاك حرمة.

* * *

الفصل الأول

مفهوم الاحتمال

« لا شيء أثقل على العقل من المنطق ؛ ولا شيء أكثر أهمية منه ».

«ول ديورانت»

الاحتمال (Probability) مفهوم رياضى فلسفى يكتنفه الغموض، ولعل هذا مايفسر إحجام كثير من المفكرين عن محاولة طرح تحليل متكامل يميظ اللثام عن طبائع السياقات التى يرد فيها، ويوصفه مفهوماً فلسفياً، يثير الاحتمال إشكاليات متعددة يمكن التعبير عن بعضها منها بصيغ التساؤلات التالية:

* ما الشكول اللغوية التى يتسنى لنا بها الإفصاح عن دلالة مفهوم الاحتمال وما طبيعة الماصدقات التى يتعين فيها؟

* ما الفرق - إن كان ثمة فرق - بين الاحتمال والإمكان والجواز والإباحة والترجيح، وما طبيعة العلاقات المنطقية التى تقوم بين مفهوم الاحتمال ومفاهيم الاستحالة والامتناع والضرورة واليقين وما فى حكمها من مفاهيم؟

* ما الخصائص الفلسفية التى يختص بها الاحتمال؟ وهل يعد - على سبيل المثال - مفهوماً معتماً أو شفافاً، وهل يعبر عن فكرة إبستمولوجية أو أنطولوجية، وهل يعد خاصية مطلقة أو نسبية؟

* ما المبادئ المنطقية التي يتوجب أن تلتزم بها نظريات الاحتمال الرياضية كيما تكون متسقة وأحكام البدهة؟

فى هذا المقام، سوف أحاول طرح إجابات مبتسرة عن بعض تلك الأسئلة بشكل أبعد ما يكون عن الجزمية، وذلك على اعتبار أن درايتى بمفهوم الاحتمال لا تخول لى حق إصدار أحكام تحسم أمرها، فضلاً عن كون الأدبيات التى كتبت فى هذا الخصوص، والتى تمكنت من الاطلاع عليها والإفادة منها، غاية فى المحدودية.

* * *

فى العربية - تتخذ التعبيرات التى يتم عبر الإفصاح عن مفهوم الاحتمال شكولاً متعددة، نذكر منها:

- يحتمل أن....، محتمل أن....، من المحتمل أن....، هناك احتمال أن....
- احتمال (كذا) هو (ن/٪)، احتمال (كذا) ضعيف، احتمال (كذا) كبير....
- احتمال (هذا) أكثر من احتمال (ذاك)، احتمال (ذاك) مساوٍ لاحتمال (هذا)، احتمال (هذا) أقل من احتمال (ذاك).

أما فى الإنجليزية، فعادة ما تستعمل التعبيرات التالية:

- It is probable that..., Probably..., the probability of (so and so) is (n%).
- There is a slight probability that,....
- (x) is more probable than (y), (y) is less probable than (x), the probability of (x) equals the probability of (y).

وبخصوص الماصدقات التى يتعين فيها مفهوم الاحتمال، فقد يستبان من السياقات سالفة الذكر ما يلى:

* قد يكون المحتمل وقوع حادثة (أو حدوث واقعة)، ومثال ذلك قولنا «إن هناك احتمالاً ضئيلاً في أن يفوز كلينتون ثانية بانتخابات الرئاسة الأمريكية».

* وقد يكون المحتمل اتصاف شئ بخاصية أحادية بعينها، كما في قولنا «من المحتمل أن يكون المانع خيراً»، وقد يكون اتصاف شئ بخاصية ثنائية أو ثلاثية، بمعنى أن تقوم بينه وبين أى عدد من الأشياء علاقة بعينها، كما في قولنا «إنه من المحتمل أن يكون زيد أكبر سنّاً من إخوته».

* وأخيراً قد يكون المحتمل صدق (أو بطلان) قضية ما، كما في قولنا «إن احتمال صدق القضية القائلة بعودة مذهب هيلي احتمال جد ضئيل».

ولأن حدوث الواقعة قابل - على المستوى المنطقي - لأن يعبر عنه بصياغة تقرر اتصاف شئ بخاصية ما (فعل سبيل المثال، يمكن التعبير عن الحدث المتعلق بفوز كلينتون بصياغة تتحدث عن اختصاصه بخاصية الفوز)؛ ولأن القول باحتمال صدق أية قضية إنما يتكافأ - على ذلك المستوى - مع القول باحتمال حدوث الواقعة التي تقرر تلك القضية حدوثها؛ فإن لنا - بوجه عام - أن نقول إن مفهوم الاحتمال يتعين في تلك الماصدقات التي تعزى إليها خصائص بعينها، باختصار شديد، فإن المحتمل - كغير المحتمل - لا يعدو أن يكون اختصاص شئ ما بخاصية ما أحادية كانت أو متعددة.

من جهة أخرى، فإن سلامة التعبير القائل بأن «س تعد أكثر - أو أقل - احتمالاً من ص» تنبئ عن كون ألفاظ الاحتمال قابلة لأن ترد في سياقات أفعال التفضيل، الأمر الذي يشير بدوره إلى نسبية مفهوم الاحتمال وعدم مطلقيته. والواقع أن كون احتمال اختصاص أى شيئين بأية خاصية قابلاً للتكميم (Quantifiable)، هو علة إمكان المقارنة بينهما، ومسوغ نسبية مفهوم الاحتمال.

وفى هذا الخصوص، نلاحظ وجود فارق - قد يكون جوهرياً - بين مفهومي الاحتمال (probability) والإمكان (possibility): فالإمكان - فيما يبدو - غير قابل لأن يرد فى سياقات أفعل التفضيل، ولذا قد لا يستساغ القول - بالعربية - إن (س) تعد أكثر - أو أقل - إمكاناً من (ص).

فى اللغة الإنجليزية، الأمر أكثر صراحة؛ يقرر إرك بارترديج فى معجمه الخاص بالاستعمالات الصحيحة والاستعمالات الخاطئة، «أن الشئ إما أن يكون ممكناً أو مستحيلًا... ولا يصح القول بأن (س) تعد أكثر إمكاناً من (ص)» (Partridge, p. 152, p. 78).

بيد أن هذا لا يعنى عدم وجود أية علاقة منطقية بين الاحتمال والإمكان؛ ذلك أن كل ممكن محتمل، وكل محتمل ممكن. الفارق يكمن فى كون الإمكان غير قابل للتحديد الكمي - لا سيما فى الإنجليزية - فى حين أن الاحتمال قابل للتكميم. إن الاحتمال قد يكون ضئيلاً جداً، وقد يكون ضئيلاً فحسب، وقد يكون عظيماً، وقد يكون عظيماً جداً؛ وفى حال اتصافه بأى من هذه الخصائص، فإن علاقته المنطقية بالإمكان تتخذ أوضاعاً متباينة. هنا يظل كل محتمل - مهما كان قدر احتماله - ممكناً، ولكن ليس بالبعيد أن نقرر بوجه عام أن كل ممكن محتمل - مهما كان قدر احتماله.

الاستحالة (impossibility) نقيض الإمكان، الأمر الذى يعنى أن اتصاف أى شئ بأية خاصية إما أن يكون ممكناً أو مستحيلًا، قدر ما يعنى أن الوسط بين هذين البديلين مرفوع، وأن الجمع بينهما إحالة منطقية (Contradiction).

وعلى نحو مشابه، يعد الاحتمال (improbability) نقيضاً للاحتتمال، فاتصاف أى شئ بأية خاصية إما أن يكون محتملاً أو غير محتمل، والوسط بين هذين البديلين مرفوع، والجمع بينهما محال.

على ذلك، فإن الوسط بين الاحتمال المكتم وعدم الاحتمال ليس مرفوعاً - رغم أن الجمع بينهما محال ما لم يكن قدر الاحتمال صفراً - ولذا فإنه ليس لنا أن نقول -

على سبيل المثال - إن اتصاف أى شئ بخاصية ما إما أن يكون محتملاً احتمالاً ضئيلاً أو غير محتمل على الإطلاق. باختصار، فإن العلاقة بين ذينك المفهومين هى علاقة تقابل (Contradictories) - وقد تكون علاقة تكافؤ (equivalence) - لكنها ليست علاقة تناقض.

فى المقابل، فإن العلاقة المنطقية القائمة بين مفهومى الاستحالة (أو أى نقيض من نقائص الإمكان) وعدم الاحتمال، ليست بوضوح العلاقات سالفة الذكر، بل تستدعى طرح بعض التعريفات والتمييزات.

عادة ما يميز المناطق بين ثلاثة أنواع من الاحتمال:

١) • الاحتمال الاستقرائى (Inductive Probability).

٢) • الاحتمال المعرفى (Epistemic Probability).

٣) • الاحتمال الإحصائى (Stastical Probability).

الاحتمال الاستقرائى هو احتمال صدق قضية ما - بوصفها نتيجة - نسبة لمجموعة من المقدمات التى يفترض صدقها دون جدل) ولتوضيح هذا التعريف وتبيان مترتباته، اعتبر البرهان الاستقرائى التالى:

80% من أعضاء هيئة الأمم المتحدة يعارضون التدخل الأمريكى فى الصومال.

ممثل الجابون عضو فى هذه الهيئة.

ممثل الجابون يعارض التدخل الأمريكى فى الصومال.

هنا نجد أن الاحتمال الاستقرائى لهذه النتيجة عظيم جداً؛ بيد أن ذلك لا يعنى أن قدر احتمالها - بذاتها - على الدرجة المشار إليها. إنه يعنى فحسب أن احتمالها عظيم جداً فى حال افتراض صدق المقدمتين اللتين تستند عليهما، وأية ذلك أنه بتعديل طفيف فى صياغة المقدمة الأولى - وذلك باستعاضة النسبة (40%) عن النسبة (80%) -

يتغير قدر احتمال تلك النتيجة. بهذا المعنى، يعد مفهوم الاحتمال الاستقرائي مفهوماً نسبياً (relative concept).

لاحظ أيضاً أن درجة احتمال تلك النتيجة تظل على حالها حتى في حال ثبوت بطلان مقدماتها، وهذا أمر يستلزمه كون ذلك المفهوم نسبياً. بكلمات أخرى، فإن مفاد ما يقرره البرهان الاستقرائي هو أنه إذا صحت مقدماته، اتخذت نتيجته قدراً بعينه من الاحتمال، وهذه قضية شرطية تصدق حتى في حال بطلان مقدماتها (أى حتى في حال عدم صحة مقدمات البرهان الاستقرائي). وغنى عن البيان أن هذا الأمر يسرى على البراهين الاستنباطية (deductive arguments) قدر ما يسرى على البراهين الاستقرائية.

الاحتمال المعرفى هو احتمال اتصاف شئ ما بخاصية بعينها وفق المعتقدات التى يعتد بها شخص بعينه فى وقت بعينه (هذا النوع من الاحتمال يعد نسبياً أيضاً، وهذا أمر ناتج عن اختلاف معتقدات البشر وعن إمكان تباين معتقدات الواحد منهم فى مختلف الأزمنة.

مثال

هكذا نجد أن احتمال قيام العدو بضربة جوية لإحدى المواقع قد يكون ضئيلاً جداً بالنسبة للمواطن العادى، وقد يكون عظيماً عند ضباط الجيش. وفى واقع الأمر، نجد أيضاً أن الاحتمالات المعرفية الخاصة بأولى الاختصاص تحظى بأهمية خاصة مقارنة بتلك المتعلقة بمعتقدات سائر البشر، رغم أن ذلك لا يعنى وجوب صحة تقديرات المختصين قدر ما يشير إلى كون أهل مكة أدرى بشعابها.

ولا يفوتنا هنا أن نلمح إلى أن الفارق بين الاحتمال الاستقرائي والاحتمال المعرفى ليس جوهرياً، فكلاهما مفهوم نسبى، وبالمقدور اعتبار الثانى حالة خاصة من حالات الأول. ذلك أن الاحتمال المعرفى لأى حدث لا يعدو أن يكون احتمال النتيجة التى تقرر وقوع هذا الحدث فى حال تعاملنا مع معتقدات الشخص المعنى بوصفها مقدمات استقرائية. على هذا النحو، يمكن عزو الخصائص التى قمنا بعزوها للاحتمال

العلاقة بين الاحتمال المعرفي. ^{العلاقة بين الاحتمال المعرفي}

الاحتمال الإحصائي مفهوم أنطولوجي، بمعنى أنه لا يتوقف على أية مقدمات استقرائية، ولا يتعلق بمعتقدات أي شخص. الاحتمال الإحصائي لحدث ما يتعلق بتواتر خاصية بعينها - أو بما يصطلح على تسميته بالتكرار النسبي (relative frequency) - في فئة إشارية محددة، ومثالها خاصية وقوع نرد متوازن على رقم بعينه، وخاصة وقوع عملة غير متوازنة على وجهها، وخاصة الإصابة بمرض ما، وما في حكم هذه الخصائص. سوف نعود للتفصيل في هذا الأمر قبيل اختتام هذا الفصل.

بوضع التمييزات سالفة الذكر في الاعتبار، يتأتى لنا الحديث عن العلاقة بين الاستحالة وعدم الاحتمال. وفي هذا السياق، نلاحظ بداية أن استحالة أي أمر - كماكانه - قد تكون:

١) استحالة منطقية (Logical Impossibility).

٢) أو استحالة فيزيقية (Physical Impossibility).

٣) أو استحالة معرفية (Epistemic Impossibility).

تختص ماصدقات مفهوم الاستحالة المنطقية في الأشياء التي تختص بخصائص متناقضة في ذات الوقت وعين المكان، ومثالها استحالة أن يكون المرء حراً جرية مطلقة وعبداً عبودية مطلقة. وباستثناء تلك الأشياء المختصة بخصائص متناقضة، يعد كل حدث ممكناً على المستوى المنطقي.

٤) الاستحالة المعرفية - أو ما يصطلح علماء النحو على تسميته بالمتنع عقلاً -

مفهوم نسبي وابستمولوجي، فما هو مستحيل معرفياً بالنسبة لشخص ما قد يكون ممكناً بالنسبة لآخر، وكذا الشأن بالنسبة لذات الشخص في مختلف الأزمنة، وفق ما يحصل عليه من شواهد. الاتصال اللاسلكي - على سبيل المثال - مستحيل معرفياً

(أى ممتنع عقلاً) عند بعض الجماعات البدائية، وتسجيل أصوات انبعث في الماضي السحيق أو مستحيل معرفياً بالنسبة لنا الآن، وقد يكون فى وسع سبيل التقنية فى المستقبل أن تمكننا من تحقيق ذلك الأمر. وفى العلوم الإنسانية، يتحدث النحاة عن الممتنع قياساً وسماعاً (كعبارة «فرس مقوود»، وعبارة «مسك مدووف»)، وعن الممتنع سماعاً والممكن قياساً (كالفعل «وذر» والفعل «ودع»). وفى علم الفقه، يتحدث الفقهاء عن الممتنع شرعاً - على إمكانه على المستوى المنطقى - (كأن يثاب على الفعل ويثاب على تركه، وكأن يكلف المشرع بما لا يطاق).

(٢٠) الاستحالة الفيزيقية هي تلك الاستحالة التى تتعلق بخرق النواميس الكونية (أو القوانين الطبيعية)؛ والواقع أن جهل البشر بهوية تلك النواميس - الناتج عن محدودية شواهدهم - يحول دون إمكان تحديد ماصدقات بعينها لذلك المفهوم.

فى هذا السياق، يتعين علينا التمييز بين الاستحالة الفيزيقية والاستحالة العلمية (Scientific impossibility). الاستحالة العلمية ضرب من ضروب الاستحالة المعرفية، فهى تتعين فى تلك الحوادث التى يعتد العلماء - فى إحدى مراحل تطور أوجه نشاطهم - بعدم احتمال وقوعها. لهذا السبب، فإنها تعبر عن مفهوم معرفى ونسبى.

فى المقابل، الاستحالة الفيزيقية مفهوم إنطولوجى مطلق، فهو لا يمت لمعارف البشر ومعتقداتهم بأدنى وشيجة. والواقع أن عدم قدرة البشر على الجزم بقانونية أية علاقة تتسنى لهم ملاحظتها، تستلزم عجزهم عن تحديد هوية الحوادث التى تستحيل على المستوى الفيزيقي. هذا بالضبط ما يؤكد أنطولوجية هذا المفهوم، قدر ما يبرر العجز عن ضرب أمثلة توضح ماصدقاته، باستثناء تلك المتعلقة بمفهوم الإستحالة المنطقية التى تعد بالتعريف مستحيلة على المستوى الفيزيقي.

أما بخصوص العلاقة بين الاستحالة وعدم الاحتمال الإحصائى فنقول إن المستحيل منطقياً غير محتمل إحصائياً، فى حين أن غير المحتمل إحصائياً قد لا يكون مستحيلاً منطقياً، ومثال ذلك أن الحصول على مائة أص (ace) من رمى نرد مائة مرة

غير محتمل إحصائياً رغم إمكانه المنطقي.

هذا أمر يسرى أيضاً على العلاقة بين مفهومي عدم الاحتمال الاستقرائي وعدم الاحتمال المعرفي من جهة، ومفهوم الاستحالة المنطقية من جهة أخرى؛ فغير المحتمل استقرائياً - كغير المحتمل معرفياً - ليس بالضرورة مستحيلًا منطقيًا. في مقابل ذلك، فإن المستحيل منطقيًا قد لا يكون محتملاً استقرائياً، لاسيما في حال استناده على مقدمات تقرر أموراً تستحيل على المستوى المنطقي.

ثمة مفهوم آخر هو الجواز (Permissibility) يتعلق بمفهوم الإمكان أكثر من تعلقه بمفهوم الاحتمال، وذلك على اعتبار عدم قابلية ماصدقاته للتكميم. في وسعنا القول بوجه عام إن كل جائز ممكن، وإن بعض الممكن ليس بجائز. فضلاً عن ذلك، فإنه بالمقدور تقرير إمكان تحديد ماصدقات مفهوم الجواز عبر تحديد فئة بعينها من القواعد المعيارية، وذلك على اعتبار إمكان تعريف مفهوم الجواز بالقول إن كل ما تسمح به أية قاعدة معيارية - في أي مجال تخصصي بعينه، أو ضمن أي نسق من اللوائح - يعد جائزاً.

هكذا نجد أن السلوك الجائز من وجهة نظر قضائية هو ذلك السلوك الذي لا ينص القانون صراحة على منعه، وأن السلوك الجائز (أو المباح) من وجهة نظر فقهية هو ذلك السلوك الذي لا ينص الشارع على تحريمه (ولذا يقال إنه لا يثاب على فعل الجائز ولا يعاقب على تركه)، كما نجد أن الحركة الجائزة من وجهة نظر النحو هي تلك الحركة التي لا تنص قواعد النحو على وجوب الالتزام بغيرها. وعلى هذا النحو، يجوز (قانوناً) الارتحال بغية التعلم، ويجوز (شرعاً) أن يوصى المرء لغير الوارث في حدوث ثلث التركة، ويجوز (نحواً) النصب على الاستثناء قدر ما يجوز الرفع على البدلية في حال وقوع المستثنى منه بعد جملة منفية تامة.

لاحظ أن ما يجوز نسبة لفئة بعينها من القواعد المعيارية قد لا يجوز نسبة لفئة

أخرى. هكذا يجوز النحاة ما لا يجوز نقاد الأدب، ويجوز الأدباء ما لا يجوز علماء الأخلاق، ويجوز الفلاسفة ما لا يجوز رجال الدين. فضلاً عن ذلك، فإن ما يجوز لشخص نسبة لفئة بعينها من القواعد المعيارية قد لا يجوز لشخص آخر نسبة لذات الفئة، وما يجوز لشخص ما في وقت بعينه قد لا يجوز له في وقت آخر. هكذا قد يجوز للمجنون ما لا يجوز للعاقل، وقد يجوز للجاهل ما لا يجوز للعالم، وقد يجوز للمرء حال مرضه ما لا يجوز له حال شفاؤه. باختصار، ليس ثمة إطلاق في الجواز.

في المقابل، يتعلق مفهوم الأرجحية (likelihood) بمفهوم الاحتمال أكثر من تعلقه بمفهوم الإمكان، الأمر الذي يرجع إلى قابلية ماصدقات مفهوم الأرجحية للتحديد الكمي. إن المرجح حدث (أو قضية) يفوق احتمال حدوثه (أو صدقها) احتمال عدم حدوثه (أو بطلانها). وغنى عن البيان أن مفهوم الأرجحية مفهوم نسبي أيضاً، فالحدث يكون أكثر أرجحية من غيره إذا كان احتمال حدوثه يفوق احتمال حدوث غيره. لهذا السبب، فإن ماصدقات مفهوم الأرجحية لا تعدو أن تشكل فئة جزئية من فئة ماصدقات الاحتمال. ولأن للاحتمال - كما أسلفنا - ثلاثة أنواع، لنا أن نتوقع وجود ثلاثة أنواع من الأرجحية: أرجحية استقرائية، وأرجحية معرفية، وأرجحية إحصائية.

أما الضرورة (necessity) - حين تكون منطقية - فهي خاصية تتعين في كل القضايا التحليلية (analytic propositions) والتحصيلات الحاصلة (tautologies)، أى تتعين في القضايا التي لا تقرر محاميلها سوى ما تم تقريره في مواضيعها، وعلى وجه العموم، تتعين في القضايا التي يستحيل بطلانها.

فإن كانت ضرورة معرفية، اختصت بها تلك القضايا التي نجزم يقيناً - وفق مايتوفر في حوزتنا من شواهد - بصحتها. أما بالنسبة للضرورة الإحصائية - والتي يعبر عنها عادة بالقول «إن احتمال (س) هو 100٪» - فإنه في وسعنا تقرير أن الضرورة الإحصائية والضرورة المنطقية وجهان لذات العملة، فكلاهما أمر أنطولوجي خالص، وكلاهما قابل لأن يعبر عنه بنسبة مئوية غير قابلة - بالتعريف - لأدنى زيادة.

نلاحظ أيضاً فى هذا الخصوص أن ثمة علاقة تقوم بين الضرورة واليقين (certainty)، نفصح عنها بالقول إن اليقين حالة معرفية خاصة، وإن تكافأت على المستوى المنطقى مع كل حالات المعرفة البشرية. ذلك أن للمعرفة أشراطاً ثلاثة لا تتحقق إلا باستيفائها: فالعارف لا يعرف ما لم يعتقد فى صحة ما يدعى معرفته، وما لم يكن معتقده صحيحاً بالفعل، وما لم يكن فى حوزته من الشواهد ما يضمن صحة ذلك المعتقد. لكل هذا، فإن صدق ما يعتقد العارف فى معرفته - كصدق ما يجزم المتيقن بصحته - أمر ضرورى لمعرفته إياه - أو لجزمه به - رغم أن ضرورته بذاته ليست منطقية خالصة.

وفى واقع الأمر، فإن الضرورى ضرورة منطقية خالصة ليس المعتقد موضع المعرفة، وليس اليقين بموضع الجزم - ما لم يكن موضع الجزم قضية تحليلية أو تحصيل حاصل - بل النقلة التى تحدث من المقدمات التى تقرر حدوث الحدث المعرفى إلى النتيجة القائلة بصدق المعتقد. فعلى سبيل المثال، نجد أن معرفة المرء بوجود ثقب فى طبقة الأوزون - كيقينه من وجود هذا الثقب - لا يجعل وجوده أمراً ضرورياً على المستوى المنطقى، وأية ذلك أنه بمقدورنا تخيل خلل الغلاف الجوى منه، وأيته الأخرى كوننا قد اكتشفنا وجوده اكتشافاً امبيريقياً، ولم نخلص إليه عبر التحليل المنطقى لدلالة لفظ الأوزون. على ذلك، فإن افتراض معرفة المرء بأى أمر - كافتراض كونه على يقين تام منه - يسلتزم ضرورة حدوث ذلك الأمر، شريطة أن نلاحظ أن الضرورة هنا إنما تكمن فى الاستلزام ولا تكمن فى صحة المستلزم أو المستلزم. باختصار، فإن ما نعرفه صادق لا بذاته بل لكوننا نعرفه، وكذا الشأن بالنسبة لما نحن على يقين منه.

لاحظ أيضاً أن المتيقن لا يختلف عن العارف إلا بخصوص درجة اعتقاده فى موضع الحدث الاستمولوجى. اليقين لا يعدو أن يكون حالة نفسية تغترى العارف، لكنه يتكافأ منطقياً - كما أسلفنا - مع المعرفة. لا يحق للمتيقن أن يكون على يقين ما لم يمتلك من الشواهد ما يضمن صحة ما يزعم كونه على يقين منه، وكذا الشأن بالنسبة

للعارف، ولذا فإن الإفراط في الاعتقاد لا يرجع إلى الحصول على شواهد جديدة بل يرجع إلى حيثيات لا تمت لصدق موضع الاعتقاد بأدنى صلة. حقاً إن المتيقن قد يضحي بحياته في سبيل معتقده، لكن هذا لا يبيئ اليقين أية منزلة إبستمولوجية خاصة.

أما بخصوص الشفافية (transparency)، فتعد مفاهيم الاحتمال الإحصائي والاستحالة الإحصائية والإمكان المنطقي والاستحالة المنطقية والأرجحية الإحصائية مفاهيم شفافة. تتعين شفافية أى مفهوم في إمكان استعاضة الحدود التي ترد بعد التعبيرات التي تفصح عنه بحدود تتكافأ معها منطقياً. بكلمات أخرى، فإن شفافية المفهوم (م) وقف على سلامة البرهان الصوري التالي:

• (م) — س —

• (س) \equiv (ص)

• (م) — ص —

هكذا يبين البرهان التالي شفافية الاحتمال الإحصائي:

• الاحتمال الإحصائي للحدث (س) هو (ن).

• التعبير القائل بحدوث (س) يتكافأ منطقياً مع التعبير القائل بحدوث (ص).

• إذن، الاحتمال الإحصائي للحدث (ص) هو (ن) أيضاً.

إذا قمنا برمي نرددين متوازنين فإن احتمال «الحصول على أحد الإمكانات (3,6)، (2,4) أو (1,2) هو (1/12)»، ومن ثم - وفق شفافية مفهوم الاحتمال الإحصائي - فإن احتمال «الحصول على عدد من النرد الأول يساوى ضعف العدد الذي نحصل عليه من الثاني» هو (1/12) أيضاً، وذلك على اعتبار تكافؤ العبارتين المنصوص عليهما.

لاحظ أن مفاهيم الاحتمال والاستحالة الإحصائية والإمكان المنطقي والاستحالة المنطقية والأرجحية الإحصائية - التي أشرنا إلى كونها مفاهيم شفافة - تعد مفاهيم أنطولوجية أيضاً. بيد أن أنطولوجيتها ليست علة شفافيتها، والشاهد على ذلك هو وجود مفاهيم أنطولوجية تعد معتمدة (opaque concepts)، بمعنى أنها لا تسمح باستمرار بالاستعاضة الوارد ذكرها في تعريف الشفافية، ومثالها مفهوم القانون الطبيعي (nature law) ومفهوم الاستحالة الفيزيائية. والواقع أن عتمة هذا المفهوم الأخير راجعة بدورها إلى عتمة المفهوم الأول. ذلك أن المستحيل فيزيقياً لا يعدو أن يكون حدثاً يخرق قانوناً طبيعياً، والقانون الطبيعي ليس قابلاً لأن يستعاض عنه باستمرار بما يتلائم معه، وذلك على اعتبار إمكان تعيين ما يتلائم معه في ماصدقات موضوعية بعينها، في حين أن قانونية أية قضية - في مذهب بعض فلاسفة العلم على أقل تقدير - رهن بعدم إشارتها لأية مواضع بعينها (الحصادي، 1، ص 104).

في المقابل، تعد المفاهيم الاستمولوجية - بوجه عام - مفاهيم معتمدة، فهي لا تسمح باستمرار بالاستعاضة الحدود التي ترد بعد التعبيرات التي تفصح عنها بحدود تتكافأ معها منطقياً. ولأن مفاهيم الاحتمال المعرفي والاستحالة المعرفية - وما في حكمها من مفاهيم - تتعلق بمعتقدات البشر وترتبن بأوضاعها، فإنها تعد مفاهيم معتمدة. هكذا نجد على سبيل المثال أنه من المحتمل معرفياً بالنسبة لشخص ما - وفق ما يعتد به من شواهد - أن يكون الفراهيدي صاحب كتاب العين، أو أن يكون أستاذاً لسيبويه، دون أن يكون من المحتمل لديه أن يكون الخليل بن أحمد صاحباً لذلك الكتاب، أو أستاذاً لذلك النحوي؛ ذلك أن صاحبنا هذا قد يجهل أن الحديث في الحالين هو حديث عن ذات الشخص.

* * *

لاريب أن مفهوم الاحتمال يقوم بدور أساسي في النشاط العلمي بمختلف ضروبه، فليست كل التعليقات مؤسوسة على قوانين ذات صياغة كلية. هكذا قد نقوم

بتفسير إصابة طفل بمرض الحصبة بالقول إنه قد أصيب بعدواها من أخيه الذى عانى من هذا المرض منذ بضعة أيام. من البين أن هذا التفسير يقيم علاقة بين الحدث المراد تفسيره وحدث أسبق منه، وأنه قد تم الاعتداد به بوصفه تعليلاً على اعتبار وجود علاقة بين التعرض للحصبة والإصابة بها.

على ذلك، فإنه ليس بالمقدور التعبير عن تلك العلاقة بقانون ذى صياغة كلية، فليست كل حالات التعرض لذلك المرض تؤدى إلى العدوى به. إن كل ما يمكن تقريره فى هذا الخصوص هو احتمال (أو أرجحية) أن يصاب الذين يتعرضون للحصبة بها.

وكما يوضح كارل همبل فى مقاله المتميز عن التفسير الاحتمالى (Hempel, pp. 28-38)، تتخذ العديد من القوانين الهامة والمبادئ النظرية فى العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية صبغة احتمالية خالصة، رغم أنها غالباً ما تكون على درجة من التعقيد تفوق درجة ذلك المثال. هكذا نجد فى النظرية الحركية (Kinetic Theory) تواترات مختلفة تتعلق بحركة الغازات - بما تتضمنه من قوانين خاصة بالديناميكا الحرارية التقليدية - يتم تفسيرها عبر افتراضات تختص بجزئيات الغازات المكونة، كما نجد أن بعضاً من تلك التواترات لا تعدو أن تكون فروضاً احتمالية تتعلق بالتكرارات الإحصائية لحركات تلك الجزئيات، والاصطدامات التى تحدث بينها (Ibid, P. 35).

ثمة خلط يتعين درؤه فى هذا السياق يمكن الإفصاح عنه بالقول بوجوب اعتبار كل القوانين العلمية - سواء أكانت كلية أم إحصائية - قوانين إحصائية، وذلك على اعتبار أن الشواهد التى تدعمها لا تعدو أن تكون معطيات متناهية باستمرار، ومن ثم فإنه ليس فى وسعها إثبات تلك القوانين، الأمر الذى يستلزم أن تلك المعطيات لا تجعل الشواهد على القوانين إلا على درجة من الاحتمال قد تزيد أو تنقص. وكما يوضح همبل، فإن هذا البرهان ينطوى على سوء فهم:

«فالتمييز بين القوانين الكلية والقوانين الإحصائية لا يشير إلى القوة

التي تدعم بها الشواهد ذينك النوعين من القضايا، بل يشير إلى

صياغتها التي تعكس الخاصية المنطقية التي تختص بها محتوياتها.

إن القانون ذا الصياغة الكلية إنما يعبر عن قضية مفادها أنه «في كل الحالات التي تتحقق فيها شروط من النوع (س)، تتحقق أيضاً شروط من النوع (ص).

في المقابل، فإن القانون ذا الصيغة الاحتمالية، إنما يقرر أنه تحت شروط بعينها، تشكل أداءات للتجربة العشوائية (ل)، سيحدث نوع معين من النتائج بنسبة محددة من الحالات.

ويغض النظر ما إذا كان هذان النوعان من المزايم صادقين أو باطلين، ومدعومين بشواهد قوية أو ضعيفة، فإنهما يتصفان بخصائص منطقية مختلفة، وعلى أساس هذا الاختلاف تم التمييز بينهما» (Ibid., p. 35-38).

بيد أن الاختلاف الذي يشير إليه همبل - على أهميته البالغة، وعلى قدرته على درء الخلط سالف الذكر - لا يفضى بذاته إلى عجز القوانين الاحتمالية عن تفسير الظواهر التي يتم رصدها، رغم أن التفسيرات الإحصائية - في مقابل التفسيرات الكلية - لا تحول دون إمكان عدم وقوع تلك الظواهر حولاً منطقياً. ثمة دور هام ومتعاضم تلعبه مثل هذه التفسيرات الإحصائية في النشاط العلمي، رغم أن تعليقاتها عادة ما تكون أقل إحكاماً من تلك التي تعول على قوانين كلية.

وفي واقع الأمر، فإن الجدل القائم بين فلاسفة العلم حول قدرة التعليقات الإحصائية على تفسير ما تزعم تفسيره من ظواهر، إنما يرجع إلى الجدل الذي أثير منذ القدم حول مصداقية وجهة النظر الحتمية التي اعتد بها فلاسفة من أمثال ديكارت ولا بلاس، والتي تقرر أن القوانين الإحصائية لا تعدو أن تكون تعبيراً عن عجز البشر عن ضبط المتغيرات بطريقة تكفل لهم حق إصدار أحكام كلية.

* * *

ولكن، ما الذى يعنيه أصلاً القول بأن حدوث حدث ما محتمل بدرجة بعينها؟
 ما الذى يعنيه التعبير الاصطلاحي القائل «بأن احتمال أن ينتج أداء التجربة العشوائية
 (u) عن النتاج (w) هو (n)»؟

هـب أننا قد قمنا بسحب كرة من وعاء يحتوى على مائة كرة متساوية الحجم
 والكتلة - وإن لم يعرف ما إذا كانت متماهية الألوان. ثم هـب أننا قد قمنا بتكرار هذا
 الأمر مرات عدة، حيث تتم ملاحظة لون الكرة المسحوبة فى كل مرة، ويتم إرجاعها إلى
 الوعاء، كما يتم خلط الكرات قبل القيام بالسحبة التالية. هذا مثال لما يسمى بالتجربة
 العشوائية (u).

إذا كانت كل الكرات التى يحتوى عليها الوعاء بيضاء اللون، فستصدق القضية
 الكلية القائلة بأن كل نتائج أداءات تلك التجربة عبارة عن كرات بيضاء. النسبة (n)
 للنتاج (w) ستكون فى هذه الحالة (100٪) أو (1). أما إذا كانت بعض الكرات
 فحسب بيضاء اللون - (60) منها مثلاً - فسنحصل على قضية احتمالية مفادها أن
 احتمال أن يفضى أداء التجربة العشوائية (u) كرة بيضاء (w) هو (60٪).

وعلى نحو مماثل، فإن احتمال الحصول على (أص) كنتاج لأداء تجربة عشوائية
 لرمى نرد متوازن هو (1/6) - على اعتبار أنه مكعب نو ستة أوجه.
 التعبير الرمضى عن تينك القضيتين يكون على النحو التالى:

$$P(w, u) = 0.6$$

$$P(A, N) = 1/6$$

مرة أخرى، ما الذى تعنيه مثل هذه التعبيرات اللفظية أو الرمزية؟ ثمة نظرية
 كلاسيكية فى الاحتمال تقرر وجوب تأويل القضية الأولى على النحو التالى:

كل أداء للتجربة (u) لا يعدو أن يكون فى واقع الأمر اختياراً لأحد الإمكانات
 التى يصل عددها إلى مائة إمكان. من هذه الإمكانات، هناك ستون بديلاً تعد فى

صالح النتائج (w)، وما احتمال سحب كرة بيضاء إلا نسبة عدد هذه البدائل إلى عدد تلك الإمكانيات (ألا وهو 60 : 100)، وهكذا هو الشأن بالنسبة للقضية الثانية، وبالنسبة لكل قضايا الاحتمال؛ فالإمكانيات في حال الترد المتوازن ستة، واحد منها فحسب يعد في صالح النتائج المتعلق بوقوعه على (أص)، ولذا فإن النسبة المعينة هي (1 : 6).

وكما يوضح كارل همبل، فإن هذا التحليل الكلاسيكي - بوضعه الراهن - غير قادر على التعامل مع بعض الحالات. في مثالنا السابق، إذا قمنا - عقب كل سحب - بوضع الكرات غير البيضاء فوق الكرات البيضاء، فإن النسبة (60 : 100) ستظل على حالها، رغم أن احتمال سحب كرة بيضاء سيكون أقل من (60٪).

لمعالجة هذا القصور البين، يشترط أصحاب تلك النظرية أن تكون الإمكانيات المشار إليها في تعريفها للاحتمال «متساوية الإمكان» (equiprobable). بيد أن هذا المفهوم سئ السمعة على المستويين الفلسفي والرياضي، وكان قد أثار جدلاً بخصوص إمكان تحليله بطريقة تمكن من تجنب ذلك القصور. إذ ما معنى أن تكون الإمكانيات المعنية متساوية الإمكان؟ ألا يعني أن احتمال تحقق أي إمكان منها مساوٍ لاحتمال تحقق أي إمكان آخر؟ ولكن كيف يتسنى لنا الاعتداد بمثل هذا التعريف الذي يصادر على المطلوب ويدور في حلقة مفرغة؟ فالمحتمل - وفق تلك النظرية - تحدد له درجة يعبر عنها بنسبة بدائل تكون في صالح النتائج إلى إمكانيات متساوية الإمكان، والإمكانيات تكون متساوية الإمكان - وفق ذلك التعريف - إذا تساوت درجات احتمالها. هذا مثال بين لما يصطلح على تسميته بالدور المنطقي غير المباشر أو المستسر؛ فالمعروف لا يذكر في التعريف صراحة - على طريقة الأنوار المنطقية المباشرة أو الصريحة - ولكن يذكر في التعريف مفهوم - هو تساوى الإمكانيات - لا يمكن تعريفه إلا بذكر صريح لذلك المعروف.

فضلاً عن ذلك، وحتى على افتراض إمكان الحصول على تعريف لا يصادر على المطلوب لذلك المفهوم، فإن النظرية الكلاسيكية تواجه - فيما يوضح همبل - صعوبة

أخرى، تتعين في كوننا نعزو قيماً احتمالية لنتائج تجارب عشوائية لا ندرى شيئاً عن إمكاناتها (أى نجهل ما إذا كانت إمكاناتها متساوية الإمكان)، كما يحدث في تجربة لرمى نرد غير موازن، وكالتجارب المعملية المتعلقة بالانحلال التدريجي لذرات المواد المشعة، وما شابه ذلك.

وفق النظرية المعاصرة للاحتمال، يتم التحقق من قيم احتمال (الأص) في نرد لانعرف أنه متوازن (أى نجهل ما إذا كانت إمكاناته متساوية الإمكان) على النحو التالي: القيام برمى النرد عدداً كبيراً من المرات والتحقق مما يصطلح على تسميته بال تكرار النسبي (relative frequency)، أى التحقق من نسبة (الأصوات) إلى ذلك العدد. فعلى سبيل المثال، إذا قمنا بتكرار تلك التجربة ثلاثمائة مرة، وحصلنا على (62) (أصاً)، فإن التكرار النسبي في هذه الحالة سيكون (62 : 300)، وستعد هذه النسبة قيمة تقريبية لاحتمال الحصول على (أص).

وبطبيعة الحال، لنا أن نتوقع أن تتغير - ربما بشكل طفيف - نسبة (الأصوات) بزيادة تكرار التجربة، وفي واقع الأمر، فإن تلك النسبة عادة ما تختلف باختلاف التجارب حتى في حال تساوى عدد تكرارها. فعلى سبيل المثال، قد نقوم برمى النرد ثانية ثلاثمائة مرة ونحصل على النسبة (65 : 300).

على ذلك، فيما يوضح همبل، فإن التكرار النسبي في كل تجربة سينزع نحو التماثل كلما ازداد عدد تكرارها. ويلغة اصطلاحية، يتم تعريف الاحتمالات على اعتبار أنها الحدود الرياضية (mathematical limits) التي تقترب منها التكرارات كلما زاد عدد أداءات التجارب (Hempel, pp. 28-32).

* * *

ثمة مبادئ رياضية يتوجب على كل نظرية متسقة في الاحتمال أن تعتمد بها:

(1) تتراوح قيم الاحتمال العددية الممكنة بين الصفر والواحد:

$$0 \leq P(O, R) \leq 1$$

وكما أسلفنا، فإن الاحتمال الإحصائي للقضية المتناقضة هو صفر باستمرار، وذلك على اعتبار استحالة صدقها، والاحتمال الإحصائي للتحصيل الحاصل هو واحد باستمرار، وذلك على اعتبار استحالة بطلانه. أما القضايا العارضة (contingent propositions) فإن احتمالها يكون باستمرار أكثر من صفر وأقل من واحد.

(2) احتمال أحد نتاجين، يحول وقوع الواحد منهما دون وقوع الآخر، هو مجموع احتمالي النتاجين كل على حدة:

$$P(O \vee S, R) = P(O, R) + P(S, R)$$

شريطة أن :

$$(O \equiv - S)$$

ومثال ذلك، نجد أن احتمال الحصول على عدد فردي من رمي نرد متوازن (أي احتمال الحصول على أحد الأرقام 2، أو 4، أو 6) هو احتمال الحصول على (2)، مضافاً إليه احتمال الحصول على (4)، واحتمال الحصول على (6) :

$$P(2 \vee 4 \vee 6, R) = P(2, R) + P(4, R) + P(6, R) \\ = (1/6) + (1/6) + (1/6) = (1/2)$$

أما إذا كان الحدثان المراد تقدير احتمالهما لا يحول وقوع الواحد منهما دون وقوع الآخر، فإن القاعدة تقرر:

$$P(O \vee S, R) = (P(O, R) + P(S, R)) - \\ (P(O, R) \times P(S, R))$$

ومثال ذلك، نجد أن احتمال الحصول على (أص) من أحد نردين عبارة عن احتمال الحصول على (أص) من النرد الأول - وهو (1/6) - مضافاً إليه احتمال الحصول على (أص) من النرد الثاني - وهو (1/6) أيضاً - مطروحاً منه حاصل ضرب احتمال الحصول على (أص) من الأول في احتمال الحصول على (أص) من الثاني؛

$$[(1/6) + (1/6)] - [(1/6) \times (1/6)] = (11/36)$$

(3) احتمال وقوع نتاجين معاً، لا يحول وقوع الواحد منها دون وقوع الآخر، هو حاصل ضرب احتمال كل واحد منهما على حدة:

$$P(O, S, R) = P(O, R) \times P(S, R)$$

(من البين أن احتمال وقوع نتاجين يحول وقوع الواحد دون وقوع الآخر هو صفر باستمرار).

مثال ذلك، نجد أن احتمال الحصول على (أصين) من رمي نردتين متوازنتين هو احتمال الحصول على (أص) من أحدهما مضروباً في احتمال الحصول على (أص) من الآخر:

$$P(1.1', R) = P(1, R) \times P(1', R) = \\ (1/6) \times (1/6) = (1/36)$$

* * *

ولكن كيف يتم اختبار الفروض العلمية التي يعبر عنها في شكل قضايا احتمالية؟ تقرر النظرية المعاصرة أن ذلك يتم عن طريق اختبار التكرارات النسبية طويلة الأمد الخاصة بالنتائج قيد الاعتبار. أما بخصوص التدليل على مثل تلك الفروض، فإنه يتم في ضوء التقارب الذي يحدث بين الاحتمالات الفرضية والتكرارات النسبية الملاحظة. بيد أن هذا الأمر يؤثر بعض الإشكالات الخاصة التي تستدعي نقاشاً مختصراً على الأقل؛ إذا اعتبرنا الفرض القائل بأن احتمال الحصول على (أص) من نرد بعينه هو (0.15)، فمن البين أن هذا الفرض لا يستلزم استنباطياً - على سبيل المثال - أن (75) حالة بالضبط من كل (500) رمية ستكون في صالح ذلك النتائج، بل إنه لا يستلزم حتى كون عدد (الأصوات) متراوحاً بين (50) و (100) أص. وفي واقع الأمر، فإن حدوث اختلاف بين النسبة الفرضية والنسبة الواقعية لا يشكل

دحضاً للفرض المعنى، وذلك على اعتبار أن هذا الفرض لا يحول منطقياً بون حدوث مثل ذلك الاختلاف. وغنى عن البيان أن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للفروض الكلية. إذا كان هناك ما يستدعى التخمين بكون النرد غير متوازن، وقمنا بطرح فرض يقرر أن كل الرميات ستننتج عن رقم بعينه، فإن الحصول على أى رقم مغاير سيشكل دحضاً لذلك الفرض. هذا أمر تستلزمه مباشرة قاعدة «مورس تولنز» المنطقية التى تقرر أنه إذا استلزم فرض ما حدوث واقعة بعينها، فإن عدم حدوث هذه الواقعة يضمن بذاته بطلان ذلك الفرض. الفرض القائل بأن كل الرميات ستننتج عن رقم بعينه يستلزم عدم إمكان الحصول على أى رقم مغاير؛ وإذا فإن الحصول على مثل ذلك الرقم المغاير - فى أية حالة - يضمن بذاته بطلان ذلك الفرض، ومن ثم يشكل دحضاً له.

وعلى نحو مخالف، فإن وجود سلسلة طويلة من الرميات التى تنتج نسبة من (الأصوات) تقترب إلى حد كبير من النسبة (0.15) لا يشكل دعماً للفرض القائل بأن احتمال الحصول على (أص) هو (0.15)، بذات الدلالة التى يدعم بها الحصول على (أصوات) الفرض القائل بأن كل الرميات ستننتج عن (أصوات) (Hempel, P. 33-34).

على ذلك - فيما يقرر همبل - ثمة دلالة للتدليل وأخرى للدحض يمكن وفقهما تقويم نتائج اختبارات الفروض الإحصائية:

«بالرغم من أن (H) - الفرض القائل بأن احتمال الحصول على (أص) هو (0.15) - لا يحول منطقياً بون اختلاف نسبة الأصوات التى نحصل عليها فى سلسلة طويلة من الرميات اختلافاً بيناً عن تلك النسبة، إلا أنه يستلزم منطقياً أن ذلك الاختلاف جد غير محتمل بالمعنى الإحصائى.

بكلمات أخرى، إذا تم تكرار تجربة أداء سلاسل طويلة من الرميات (ألف رمية فى كل سلسلة مثلاً) لعدد كبير من المرات، فإن نسبة ضئيلة فحسب من تلك السلاسل الطويلة ستننتج نسبة من الأصوات تختلف

اختلافاً بيناً عن (0.15)...

فعلى سبيل المثال، فإن احتمال أن تكون نسبة الأصوات متراوحة بين (0.14) و(0.16) وفى سلسلة تتكون من (10,000) رمية - هو (0.995) تقريباً.

هكذا نستطيع القول إنه إذا كان الفرض (H) صادقاً، فإنه من المؤكد عملياً أنه فى سلسلة طويلة من الرميات، ستختلف نسبة الأصوات الملاحظة اختلافاً طفيفاً عن القيمة الاحتمالية (0.15).

لهذا السبب، إذا كان التكرار الخاص بسلسلة طويلة لنتائج ما ليس قريباً من الاحتمال الذى يقرره فرض إحصائى ما، فإنه من المرجح أن يكون الفرض باطلاً. فى هذه الحالة، تعد المعطيات التكرارية شواهد ضد الفرض من شأنها أن تضعف ثقتنا فى مصداقيته.

أما فى حال العثور على شواهد داحضة على درجة كافية من القوة، فسيعد الفرض عملياً - ولكن ليس منطقياً - فرضاً باطلاً، ومن ثم يتم رفضه.

وعلى نحو مشابه، فإنه من شأن التقارب بين الاحتمالات الفرضية والتكرارات الملاحظة أن يعمل على التدليل على الفرض الاحتمالى، وقد يفضى إلى قبوله» (Ibid.).

لقد أثرت أن أقوم بسررد هذا النص كاملاً - على طوله - لأن حديث همبل هنا مضطرب أيما اضطراب، رغم تعلقه بأمور لا تسمح بغير الحسم. ثمة حلقة مفرغة يدور فيها هذا التحليل قد يستبان أنه ليس ثمة مناص منها.

لاريب أن السبيل لاختبار الفروض يشكل جزءاً لا يتجزأ من دلالاتها، وهذا أمر يسرى على الفروض الكلية قدر ما يسرى على الفروض الإحصائية. هذا حكم يمكن

الاستشهاد عليه بمجرد التلميح إلى إمكان التمييز بين ذينك النوعين من الفروض بمجرد التمييز بين سبل اختبارهما. بيد أن هذا الحكم يسلترزم - فيما يسلترزم - وجوب عدم التعويل على وضوح دلالة مفهوم الاحتمال في معرض التمييز بين سبل اختبار الفروض الكلية وسبل اختبار الفروض الاحتمالية، وهذا بالضبط هو ما يقوم به همبل في ذلك النص. إذ ما معنى القول بأنه «من المؤكد عملياً» أن تختلف النسبة الملاحظة عن القيمة الاحتمالية الفرضية؟ وما معنى القول إنه في حال وجود مثل ذلك الاختلاف سيكون «من المرجح بطلان الفرض»؟ ألا يعنى أن احتمال ذينك الأمرين احتمال كبير؟ ولكن، كيف يتسنى لنا الحديث عن الاحتمال في معرض التمييز بين سبل اختبار الفروض الاحتمالية وسبل اختبار الفروض الكلية، ما لم تكن نجزم سلفاً - دون أدنى برهان - بعدم تعلق ذلك التمييز بالتمييز بين دلالة الاحتمال ودلالة الكل؟ باختصار، ألا يفترض التحليل الذى يطرحه همبل أن لدينا فكرة مسبقة عن فكرة الاحتمال؟ وإذا كان ذلك كذلك، ألا يصادر ذلك التحليل على المطلوب؟

هكذا يلتبس أمر تحليل مفهوم الاحتمال تحليلاً رياضياً متكاملًا. بيد أن مترتبات هذا اللبس لا تقتصر على تبيان قصور قدرات علماء الرياضة بخصوص طرح نسق متسق لذلك المفهوم، بل تتجاوز ذلك بكثير. إن نظرة سريعة للأدبيات الفلسفية التى عنيت بتبرير مشروعية النقلة الاستقرائية، وما تحفل به هذه الأدبيات من تعدد واختلاف فى وجهات النظر، توضح كيف ظلت الفلسفة عاجزة عن تحليل مفهوم الاحتمال بطريقة تشرع حديث العلماء عن الفروض الاحتمالية، وعن قدرة ما يحصلون عليه من شواهد على تسويغ أو دحض تلك الفروض.

هكذا يظل التبجيل الذى يحظى به النشاط العلمى - بوصفه ممثلًا لأوج مراحل التفكير البشرى - رهناً بالخوض فى حيثيات ذات صبغة تقنية خالصة، ووفقاً على حسمها؛ وهكذا تتضافر الفلسفة مع العلم بغية طرح دلالة متسقة لمفهوم الاحتمال بما يتضمنه من تحديد لدلالة سياق آفاق التوقعات المتضمنة - كما أسلفنا فى استهلال هذا

الكتاب - فى ذلك المفهوم.

وغنى عن البيان أنه قد يكون بمقدور تكميم الاحتمال - عبر مختلف الأساليب الرياضية والنظريات الفلسفية - أن ينير عتمة هذا المفهوم لدرجة تجعل الحديث عنه أكثر دقة وإحكاماً. ولأن هذا الكتاب يعول على إمكان مثل ذلك التكميم، فإن اكتمال تحقيق المهمة التى يروم إنجازها، رهن بتطبيق تلك الأساليب وبصحة تلك النظريات.

* * *

الفصل الثانی

قول وقائل

«تقول إنك مسافر إلى فاس،
وحيث تقول إنك مسافر إلى فاس،
فإن ذلك يعني أنك لست مسافراً إلى فاس،
بيد أنني أعلم أنك مسافر إلى فاس،
فلماذا تكذب عليّ، يا من أدعوك صديقاً»

«ولتزل لويك»

لا أقسى على النفس البشرية من أن يغترب صاحبها بفكره وأن يتفرد بمعتقده. إن النفس قد جبلت بحيث لا تذهب مذهباً ولا تستكين لنبأ تستشعر أن نفوس الآخرين تنبؤ عنه. هكذا ترى الواحد منا لا يالو جهداً في أن يجعل أغياره يجدون ما يجد ويعتدون بما يعتد، ومبلغ أمله ألا يُحتمل إلا ما حسب أنه محتمل، وأن تضيق آفاق توقعات أغياره حتى لا تتسع إلا لما اتسع به أفق توقعاته.

الخلط بين القول والقائل - على تعدد سبله وتنوع أنماطه - لا يعدو أن يكون وسيلة من وسائل جعل الآخرين يجدون ما نجد، وسببياً من سبل ترسيخ أفكارنا المسبقة بطريقة من شأنها أن تجعل ذلك الأفق أكثر محدودية مما كان يمكن أن يكون، فضلاً عن كونه مدعاة للوقوع في حبال الدوجماتيكية.

في هذا الفصل، سوف نغنى بتفصيل بعض سبل ذلك الخلط، دون أن نغفل أمر ما يترتب عليه من نتائج مؤسسية على المستوى المنهجي.

* * *

هناك سياقات متعددة تتحدد فيها قيم صدق القول بمجرد قول قائله إياه. هكذا

نجد من جهة أن هناك سياقات يصدق فيها القول لمجرد قول قائله إياه، وهذا ما يحدث فيما يصطلح فلاسفة اللغة على تسميته بالمنطوقات الأدائية أو الفعالة (performative utterances)؛ حين يقول المرء لصاحبه - وهو يحاوره - «أعدك أن أقوى على كتمان ما أنبأتني به»، فإن قوله ذاك يضمن بذاته صدق ما قال، بغض النظر ما إذا تمكن من البر بوعده، فأن تعد، وأن تفصح عن كونك تعد، أمر واحد (Austin, PP. 44 - 48).

وعلى نحو مماثل، يسرى الأمر ذاته على من يقول لزوجته «أنت طلاق» - ما لم يكن نحويًا أراد أن يوضح تحليلته كيف يتأتى للخبر أن يكون نكرة - وكذا شأن المسمى حين يسمى - فحين يقول المرء لوليدته «أسميتك كذا»، فقد أسماه كذلك - وشأن المقسم حين يقسم، والضامن حين يعطى ضماناً، وكذا شأن القائد العسكري حين يعلن الحرب، والقاضى حين يصدر حكمه، وممثل الدولة فى هيئة الأمم المتحدة - أو فى أى محفل دولى آخر - حين يفصح عن رغبة بلاده فى الامتناع عن التصويت.

فى مقابل كل ذلك، ثمة سياقات يبطل فيها القول لمجرد قول قائله إياه؛ إن الذى يقول عن نفسه إنه يغط فى سبات عميق - ما لم يكن قد وقع فريسة لمنوم مغناطيسى حاذق - إنما يقول قولاً من شأن قوله إياه أن يجعله باطلاً؛ وكذا شأن من يقول إنه لا يحسن نطق أية لفظة عربية، وشأن من يجزم قائلاً «لست من أولئك القاصرون الذين يقتربوا خطيئة اللحن»!

ومن الطبيعى أن يفضى تعلق قيم صدق القول بقيام قائله بقوله إياه إلى مفارقات وإحالات منطقية متعددة، نذكر منها على سبيل المثال ما يعرف فى أدبيات المنطق بمفارقة الكاذب (The liar's paradox) الذى أعلن - وهو يحمل جواز سفره الكريتى - أن كل الكريتيين كاذبون؛ ومفارقة كان برتراند رسل - فيما يروى عن سول كريبكى - قد وقع فى شراكها دون أن ينتبه - على حساسيته المفرطة تجاه هذا النوع من الاغاليط. لقد كان رسل يثق ثقة تكاد تكون مطلقة فى صدق صديقه جى. إى. مور، ولكى يطمئن قلبه، سأل ما إذا كان اقترف فاحشة الكذب. غير أن مور فاجأه بقوله

«بالطبع، لقد كذبت مرة واحدة على الأقل»، هنالك، علق رسل قائلاً: «لابد أن قواك هذا يعبر عن أول كذبة تطلقها في حياتك». بكلمات أخرى، لقد اعتقد رسل أن مور لم يكذب إلا حين قال إنه قد كذب.

لتوضيح المفارقة التي ينطوى عليها قول رسل، دعونا نرمز إليه بالرمز (ه)؛ ولتبسيط الأمر، سنفترض أن مور قد أصدر طيلة حياته ثلاثة أحكام، هي الحكم (أ)، والحكم (ب)، والحكم (س) الذي قرر فيه أنه قد كذب مرة واحدة على أقل تقدير.

لاحظ بداية أن (ه) تقرر حكماً مفاده صدق (أ)، وصدق (ب)، وبطلان (س)؛ ثم لاحظ أن بطلان (س) - المتضمن في (ه) - يعنى أن مور لم يكذب إطلاقاً، الأمر الذي يستلزم صدق كل ما أصدر مور من أحكام. ولأن (س) - كما افترضنا - ترمز إلى أحد تلك الأحكام، فإنه يتوجب أن تكون صادقة. ولكن، ما أن نتورط في تقرير صدق (س) حتى نكتشف أنها تقرر وجوب كذب مور مرة واحدة على الأقل؛ ولأننا افترضنا صدق الحكمين (أ) و(ب)، كما افترضنا أن مور لم يصدر فضلاً عنهما سوى الحكم (س)، فإننا سنكتشف ثانية وجوب الاعتداد ببطلان (س)، وهكذا نقع في متراجعة لا متناهية (infinite regress) لا سبيل للفكاك منها (الحصادى، 1، ص 33 - 34).

* * *

على ذلك، فإن صدق القول - في جل السياقات التي يلهج بها البشر - ليس رهناً بقول قائله إياه؛ إن المتهم الذي يدفع عن نفسه ما نسب إليها من جرائم بمجرد قوله إنه برئ، لا يعد بالضرورة بريئاً، وإن أقسم - ويده على قلبه - أنه كان إبان وقوعها يؤم صلاة الفجر في بيته؛ والمريد الذي يقول إنه قد رأى بأم عينيه شيخه المبجل وهو يبرىء - بمسحة كفيه - الأكمة والأبرص، قد لا يعدو أن يكون أفاقاً يطلق كذبة بقاء أخرى تعزز رصيده المضمخ بالتدجيل.

وعلى وجه العموم، فإننا نقول - فيما نقول - ما لا يحمل في ثناياه ما يبرىء ساحته، فنحن لم نخلق بطريقة لا نقوى معها على الكذب، بل إن بعضاً منا قد استمرأ

الكذب حتى اعتاد قوله جهاراً نهاراً، دون أن يحمر له أنف أو يرتد له طرف. لسنا جميعاً - وأسفاه - ممن يكابد قالة من قال: «أعلم علماً لا يعترية أدنى اضطراب أن الله لن يؤجرني عن قول الحق، فوالله إنما لا أكذب أنفة».

ولكن، ما الذى يجعلنا نحجم عن قول الحق؟ الجهل - بطبيعة الحال - أنبل مدعاة لمثل ذلك الإحجام، وقد يكون الخوف أقلها نبلاً، وقد يكون تحقيق المقاصد المستسرة أكثرها ضعة؛ بيد أننا قد نحجم عن قول الحق لأسباب جمالية خالصة، لاسيما وأن الواقع - معيار الصدق - يعد فى منظوره الاستطائقي مدعاة للضجر. هذا - فيما أزعج - هو علة ذلك الشعور المكتئب الذى يستحوذ علينا أحياناً نلقن - على مقاعد الدرس - بثوابت العقل والعرف والعادة، وهذا - فيما أذهب - هو علة كون الكون يبدو رحباً ومثيراً [حين نلهج بضلالات الفن] والواقع أن لنا فى كتب التاريخ والسير الذاتية - كما لنا فى إمعاننا فى إطلاق العنان لمخيلتنا حين نتحدث عن الخرافات - خير شاهد على هذا الأمر. فضلاً عن ذلك، وكما يقرر جورج سانتيانا، فإننا عادة ما نتلاعب بالحقائق كيما يكون فى وسعنا تذكرنا، وتلك - لعمرى - حقيقة سيكولوجية عن البشر مؤسفة.

بيد أنه يتوجب علينا - درءاً لأى لبس - ألا نخلط بين الصدق وقول الحق، قدر ما يتوجب علينا أن نميز بين الكذب وقول الباطل؛ فليس كل صادق بقائل للحق، وليس كل كاذب بقائل للباطل. بكلمات أخرى، قد يصدق المرء على قوله الباطل، وقد يكذب المرء على قوله الحق، فالأقوال - كالأعمال - إنما تكون بالنيات، إن الذى يقول ما يجزم بكونه حقاً صادق وإن بطل قوله، وهذا بالضبط هو شأن الجاهل الذى يحسب أنه لا يحيد عن جادة الصواب. أما الذى يقول ما يجزم بكونه باطلاً فهو كاذب وإن صدق قوله، وهذا هو شأن المنافق الذى يضم فى قلبه ما لا يظهر بلسانه. هكذا يقول عز من قائل فى محكم ذكره الحكيم:

كذب صدق

«إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله، والله يعلم أنك

لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» (المنافقون / 1).

ألا ترى أن هذه الآية الكرية تبين كيف يتسنى للمرء أن يكذب على قوله الحق؟

* * *

أما عن بيت قصيد حديثي هذا، فإنه يتعلق على وجه الخصوص بخلطنا
للأواعي أحياناً - والمقصود أحيان كثيرة - بين قول القائل وصدق (أو بطلان) ما يقول.
لا ضير أن يتم تحديد قيم صدق ما يقال - في السياقات التي سلف ذكرها - عبر
الدراية بقائله (قول المرء لامرأة «أنت طلاق» لا يصدق ما لم يكن زوجاً لها) (بيد أن
الضير كل الضير أن يجزم المرء - دون أدنى استدراك - بصدق القول (أو بطلانه) لمجرد
كونه قد قيل من قبل شخص بعينه.

والواقع أن سبل الخلط بين القول والقائل متكررة يصعب حصرها في هذا
المقام، غير أن لنا في نقاش بعضها مندوحة عن سرد سائرها.

* * *

غبر الناس على اللجوء إلى السلطة (Authority) - بدالاتها الاستمولوجية -
فاعتد الواحد منهم على نحو دوجماتيقي بجملة من الأحكام لمجرد كونها قد صدرت
عن جهة يبجلها لسبب أو لآخر. وكما سبق لى أن أوضحت في موضع آخر
(الحصادي، 2، ص 46)، فإن للسلطة أنماطها المختلفة، فقد تكون دينية تستند على
نص سماوي، أو تستند بشكل غير مباشر على أقوال رجال الدين - وقد تكون ذات
أصول اجتماعية أو سياسية - وقد تكون علمية خالصة، فالعلم، ممثلاً في ممارسيه، قد
أصبح منذ ما يربو على ثلاثة قرون مصدراً سلطوياً يعتد به.

هكذا قد يعرف المرء أمراً لأن الله قد أوحى به إليه، أو لأن من أوحى إليه قد
أخبره به، أو لأن أباه أو شيخ قبيلته قد حدثه عنه، أو لأن شخصاً يكن له الاحترام -
لأى سبب آخر من الأسباب - قد أفضى به إليه؛ وهكذا يلجأ المتبدئ إلى المحترف،
والطالب للمعلم، والمتعبد للفقير، والأقل خبرة لمن هو أكثر خبرة.

وبطبيعة الحال، فإنه لا سبيل لإنكار إمكان أن تكون السلطة مصدراً معرفياً خصباً ومفيداً، وكما يقرر ويسلى سامون، فإن الاستخدام الصحيح للسند السلطوى يلعب دوراً لا يستهان به ولا غنى عنه فى تراكم المعرفة وتطبيقها (سامون، ص 118). ولتوضيح هذا الإمكان، لنا أن نتخيل قدر المعارف الذى سوف يتسنى لنا الحصول عليه فيما إذا قمنا بالتعويل فحسب على خبراتنا الشخصية بوصفها السبيل الأوحد لتحصيل المعارف.

على ذلك، فإن للاعتداد الدوجماتيقى بأحكام السلطة - كما للاعتداد الدوجماتيقى بأية أحكام على وجه العموم - مثالبه التى يمتاز بها. لنا فى أحوال بعينها أن نذهب المذهب الذى ادعى صاحب السند معرفته، فالاعتقاد فى وجوب التأكد على المستوى الشخصى من صحة كل ما يقال ضرب من الهوس، ومدعاة لرفض الموروث بأنماطه كافة؛ ولكن ليس لنا أن نقرر دون أى تحفظ أن أحكام صاحب السلطة صادقة لمجرد كونها قد صدرت عنه. إن السطوة التى حظى بها الفكر الأرسطى لقرون عدة - وما أفضت إليه من حول دون إحداث تطور ملحوظ فى مختلف مجالات التفكير البشرى - كالسطوة التى حظى بها كتاب بطليموس فى الفلك - لم تكن سوى مترتبة مؤسسية لإغفال إمكان أن يحيد صاحب السلطة عن جادة الصواب.

﴿ فضلاً عن ذلك، فإننا عادة ما نلجأ إلى مصادر سلطوية فى أمور تخرج عن نطاق سلطانهم، فنعتد بأحكام العلماء فى الأخلاق - كما يحدث على سبيل المثال حين نستشهد بأقوال ألبرت أينشتاين فى نسبية المعايير الأخلاقية - ونعتد بأحكام رجال الدين فى النقد الأدبى - كما حدث مع الأزهر فى قضية سلمان رشدى ذائعة الصيت - وبأحكامهم فى العلم - كما حدث مع جاليليو يوم دق الأرض بكعبه وأعلن «لكنها تنور»! حقاً لقد عبر الغزالي بوضوح عن وكد البشر نحو ترسيخهم لما يعتنقون سلفاً بصوابه وعن خلطهم بين القول وقائله، حين قال:

«إذا نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه، وإن

كان باطلاً. وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ربوه، وإن كان حقاً.
فأبداً يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرف الرجال بالحق، وهو غاية
الضلال».

هذا بالضبط هو مكن كوننا نعطي اهتمامنا للقائل أكثر مما نعطي للقول، وفي
وجهة نظر بعض المفكرين، هذا بالضبط ما يفسر الدور الفاعل الذي يلعبه الفاعل في
النحو العربي؛ ألا ترى أننا نبحث عما ينوب عنه إن جهلناه أو خفنا عليه أو خفنا منه؟

* * *

7 في مقابل ذلك، قد ننكر القول لمجرد كون قائله على خلاف مذهبي وما نعتد به
من آراء سياسية أو عقائدية. لقد رفض الحزب الشيوعي في روسيا عام (1930) نظرية
جورج مندل - الراهب النمساوي - في علم الوراثة، على اعتبار كونها ضرباً من ضروب
المثالية البرجوازية، ولأسباب ثيولوجية خالصة رفضت الكنيسة نظرية كوبرنيكس القائلة
بمركزية الشمس في مجموعتها، كما رفض الكثير التعرف - مجرد التعرف - على
مبادئ نظرية دارون في التطور، وطالب بعض منا بحرق كتب لمجرد درايتهم المسبقة
بسلوكيات مؤلفيها. هكذا نفغل - وبشكل متعمد ومقصود - أن كون القائل منتعياً لمذهب
نختلف معه، لا يسحب منه حق إدلائه برأيه ولا يضمن سلفاً بطلان ما يقول، لاسيما
إذا كان قوله مندرجاً في سمت اختصاصه.

وفي هذا الخصوص، ثمة من يرى أن هذا الأمر يحدث أكثر ما يحدث في
الأوساط العلمية حيثما يفترض أن تسود روح الموضوعية. لقد أوضح توماس كون في
كتابه المتميز (Structure of Scientific Revolutions)، كيف تلجم السنة البحوث
الذين يعنون بالتفصيل في طبيعة الظواهر التي تستلزم النظرية العلمية السائدة
استحالة حدوثها، وكيف أنهم لا يجنون من يبدي استعداداً لنشر أبحاثهم (Kuhn, 2, PP. 70 - 80).

* * *

وفى سياق مماثل لهذا السياق، يفصح بعض منا عن عجزه التام عن الحجاج ضد ما يزعم محاوره ثبوته بعبارة مفادها أن زعمه «كلمة حق أريد بها باطل»، ونحسب أن نوايا قائل القول تشكك ضرورية فى مصداقية قوله. هذا خلط فاضح آخر بين القول وقائله، فكون القائل قد وكد من قوله مقاصد ليست على درجة كافية من النبل لا يضمن بذاته بطلان قائلته.

إننى لا أنكر - وليس لى أن أنكر - إمكان أن يوظف الحق فى تحقيق مآرب يندى لها جبين الشيطان؛ بيد أننى أنكر، وأجزم بنكران أن يكون بمقدور مثل هذا التوظيف أن يجعل من الحق باطلاً. وحسبنا فى هذا الخصوص أن نشير إلى أن من يشكك فى مزاعم الآخرين عبر تقرير كونها حقاً أريد به باطل، إنما يقرر على نحو متناقض بطلان ما يسمه بكونه حقاً.

* * *

وعلى نحو مماثل، لنا - فى بعض السياقات - أن نستشهد بالآية الكريمة «وشهد شاهد من أهلها» (يوسف / 26) كيما نعزز الثقة فيما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، ولكن ليس لنا أن نستشهد بها دون استدراك لطبيعة ما نستشهد بها عليه ولسياق موضع الاستشهاد.

إذا قرر خصم لنا زعماً اتفق أننا نعتد به، فإن كونه خصماً لنا لا يضمن بذاته صحة ذلك الزعم، فليست كل شهادات الأعداء صحيحة لمجرد كونها قد صدرت عنهم؛ وحسب من يعتد بحكم لا لشيء سوى أن خصمه قد اعترف به، أن يتذكر تلك الأحكام التى رفضها لذات السبب.

* * *

نقول - بجزمية مؤسسية - إن «ما بنى على باطل، فهو باطل»، ونحسب أن عجز القائل عن تسويغ ما يقول مدعاة لبطلان قوله، مغفلين بذلك أن يكون بمقدور حيثيات أخرى تسويغ ذات الحكم الذى قررنا بطلانه.

هذا أمر يجزم المنطق بصحته. إذا كان البرهان فاسداً، فإن فسادَه لا يبرهن على بطلان نتيجته؛ ذلك أن فساد البرهان لا يضمن بذاته فساد كل برهان يخلص إلى ذات النتيجة، إنه يضمن فحسب إمكان بطلان النتيجة في حال تعويلها على المقدمات المتضمنة فيه دون غيرها (الحصادي، 5، ص 31 - 35). وعلى نحو مماثل، فإن سلامة البرهان تتسق وبطلان مقدماته وصدق نتيجته؛ ذلك أن سلامة البرهان لا تضمن سوى استحالة صدق مقدماته وبطلان نتيجته.

هكذا نجد أن فساد أى برهان يخلص إلى النتيجة التي تقرر أن لهذا الكون خالقاً - كسلامة أى برهان يخلص إلى تلك النتيجة عبر مقدمات باطلة - لا يعنى بأى حال أنه لا مناص من الإلحاد؛ كما أن عجز المواطن عن إثبات حقه في العيش الكريم لا يسلبه ذلك الحق. حقاً إن ما بنى على حق فهو حق، ولكن باطل أن يكون ما بنى على باطل باطلاً ضرورة.

وفي هذا السياق، يجدر بنا - درأً لأى سوء فهم - أن نستدرك الأحكام القضائية التي يتم إصدارها بالاستناد على حيثيات أو إجراءات باطلة؛ فمن البين أن مثل هذه الأحكام لا تعد من وجهة نظر قضائية أحكاماً ملزمة. على ذلك، فإنها تظل قابلة لأن تدعم عبر اللجوء إلى حيثيات أو إجراءات صحيحة، ولذا فإنه ليس بمقدورنا الجزم ببطلانها على وجه العموم. إن الحكم الذي يقرر ارتكاب شخص ما لجريمة بعينها قابل للطعن في حال ثبوت اتخاذ إجراءات تعسفية اضطر تحت طائلتها المتهم للاعتراف بجريمته، لكن ذلك لا يعنى أنه لم يقم بها أصلاً.

* * *

وأخيراً، نستشهد في معرض رفضنا لقول من يشجب سلوكاً اعتاد القيام به ببيت ينسب إلى أبى الأسود النؤلى يقول فيه:

لاتنه عن خلق وتأتى مثله
عمار عليك إذا فعلت عظيم

هكذا - وببيت واحد - نسحب من المنتحل حق النهى عن الانتحال بتذكيره بسابق عهده فى طمس أسماء من نقل عنهم، وهكذا نخرج الطبيب الذى يعدد أضرار شرب الخمر بإهدائه قنينة من الراح المعتق، وهكذا نجم لسان المشرف على سير الامتحانات بتسليمه صورة من القرار التأديبى الذى صدر فى حقه أيام كان لا يجد أدنى غضاضة فى ممارسة أساليب الغش.

ولكن، أية علاقة نقوم بين صدق القول (أو بطلانه) واعتداد قائله بما يتناقض معه من سلوكيات؟ لنا - على سبيل المثال - أن نرفض اتهام المنتحل شخصاً يقوم بالانتحال حال كونه لا يدري دلالة هذا المفهوم من وجهة نظر قضائية، غير أنه ليس لنا أن نرفض اتهامه لمجرد كونه قد قام بسلوك مماثل. وعلى نحو مماثل، لنا أن نرفض أقوال المدمن حين يعدد أضرار الخمر فى حال كونه لا يدري بما تفعله الخمر بالآلأباب والأجساد، ولكن ليس لنا أن نرفض أقواله لمجرد كونه يتعاطى ما ينهى عنه؛ على العكس تماماً، فقد يكون المدمن الذى كابد ويلات شروب الخمر أصدق من يحدثنا عنها.

لاحظ أننا لا أدعو للتجاوز عن سلوكيات من يقوم بفعل ينهى عنه - أليس هذا مفاد السؤال الإنكارى فى قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» - بل أقرر فحسب وجوب عدم اتخاذ قيامه بذلك الفعل ذريعة لسلبه حق النهى عنه، حقاً إن من ينهى عن خلق أجدر أن ينتهى عنه، ولكن قد يكون المنهى - كالناهى - ملزماً بالكف عما يقوم به، بغض النظر عن قيام الناهى به. لاحظ أيضاً أن البيت الذى يلى البيت الذى أشرنا إليه يوضح أن وجوب عدم القيام بما ينهى المرء عنه شرط ضرورى لاتباع ما ينصح به، وليس شرطاً لامتلاكه حق النصح؛ يقول الدولى:

فهنالك يقبل إن وعظت ويقتدى
بالقول منك وينفع التعليم

* * *

هكذا يتخذ الخلط بين القول والقائل صوراً متعددة ومتنوعة، وهكذا يعبر مثل هذا الخلط عن وكد البشر اللاهج يوماً نحو تعزيز ما يعتقدون به من أفكار ومذاهب مسبقة؛ وفي الوقت الذي تراههم يبحثون - شبه جادين - عما يسوغ ما قد قرروا سلفاً أنه الحق، تكاد تتحسس التهديد المؤلم في نبرات صوت شوبنهاور حين أعلن قائلته الشهيرة «نحن لا نريد لأننا وجدنا أسباباً، بل نجد الأسباب لأننا نريد». ولأننا - كما أسلفنا في استهلال هذا الفصل - عادة ما نود لو أن أغيارنا قد اعتدوا بما نعتد به، فإننا نمنع في ممارسة التعسف والتأويل بغية أن تتسق آراؤهم مع «أفق توقعاتنا» - بالمعنى الذي أراده كارل بوبر. ولأن مثل هذا الأفق إنما يحدد ما نعتد به بوصفه محتملاً على المستوى الاستمولوجي، فإن الخلط بين القول والقائل لا يعدو أن يكون سبيلاً لقصر ذلك الأفق ولتحديد إمكاناته.

* * *

الفصل الثالث

شبه الما صدقات

«الفضائل الثانوية أخطر بكثير من الرذائل الثانوية».

«كازنتزاكي»

تعد الفلسفة - فى منظور جل ممارسيها - أداة ملائمة لتحليل المفاهيم وتبيان دلالتها بطريقة تبديد الأخطا وتدرء اللبس. على ذلك، يختلف الفلاسفة - وشأنهم الاختلاف - فى تحديد هوية المهمة التى تنبغى إناؤها بأمر ذلك التحليل وذا البيان؛ ففى الوقت الذى يؤكد بعضهم على أنه من شأن تحليل المفاهيم وتوضيح دلالتها تبيان أمثل السبل لحل الإشكاليات الفلسفية التى تعبر تلك المفاهيم عن مراكز عودها المستمر، يرى بعض آخر منهم أن أهمية إنجاز تلك المهمة إنما تكمن فى قدرتها على توضيح كيف أن الإشكاليات الفلسفية مجرد أوهام لغوية ناجمة إما عن قصور البشر عن فهم ما يقال أو عن قصور لغاتهم الناجم بدوره عن قدرتها على التمكين من قول ماينبغى ألا يقال.

* * *

يحدثنا المنطقة أن لكل مفهوم فئة من الماصدقات، وأن مثل هذه الفئة تشتمل على مجمل الأشياء التى يصدق عليها المفهوم وتقتصر عليها. وبطبيعة الحال، فإن فئة ماصدقات المفهوم قد تكون متناهية، وقد تكون لا متناهية، وقد تكون خالية تماماً. هكذا

نجد - على سبيل المثال - أن ماصدقات المفهوم الذى يشار إليه بلفظة «كتاب» تتشكل من فئة الكتب، وهى فئة يتضح تنهايتها رغم حجم ما تمت كتابته وطباعته من كتب. فى المقابل، فإن الماصدقات المشار إليها بعبارة «عدد طبيعى» (natural number) تعد لامتناهية، وذلك على اعتبار كونها تتشكل من الأعداد {1، 2، 3، ...}؛ وعادة ما يميز فى هذا السياق بين الفئات اللامتناهية التى يمكن حصرها (countably infinite) - ومثالها فئة الأعداد الزوجية {2، 4، ...} - والفئات اللامتناهية غير القابلة للحصر، والتى تعرف بالفئات «المتجاوزة للامتناهى» (trans-infinite) - ومثالها فئة «الكميات الصماء غير المتجذرة» (irrational quantities) .. وأخيراً، فإنه من البين أن الفئة التى تعبر عن ماصدقات المفهوم المشار إليه بعبارة «شكل دائرى مربع» تعد خالية تماماً (\emptyset) (null set)، وذلك على اعتبار استحالة وجود شكل يتصف بتينك الخاصيتين المتقابلتين فى آن واحد من نفس الجهة.

لاحظ أن الفئات سالفة الذكر لا تثير أية إشكالات خاصة بتحديد ماصدقاتها، بيد أن الأمر ليس دائماً على تلك الشاكلة. وعلى وجه الخصوص، ثمة مفاهيم يصعب الإجماع حول دلالاتها، الأمر الذى يحول بدوره دون الإجماع حول ماصدقاتها. وفى واقع الأمر، فإن الأسئلة التى عادة ما تثير الجدل بخصوص أمثل السبل للإجابة عنها عادة ما تعبر عن تساؤلات حول تحليل مفاهيم بعينها بطريقة تبين على وجه الضبط مجمل ما ينتمى إليها من ماصدقات. لا سبيل - على سبيل المثال - لحسم الجدل الممكن قيامه حول ما إذا كان القيام بسلوك ما يعد حلالاً أم حراماً دون طرح تحليل ملائم لمفهومي الحلال والحرام؛ فبطرح مثل هذا التحليل سوف يكون فى وسعنا تصنيف ذلك السلوك بوصفه ماصدقاً لأحدهما.

وعلى نحو مماثل، لا سبيل لحسم الجدل القائم حول علمية الدراسات الإنسانية دون طرح تحليل ملائم لمفهوم النشاط العلمى، ولا سبيل لحسم الجدل القائم حول أحقية الأمم المتحدة فى استعمال العنف بغية تطبيق قراراتها دون البت فى أمر

اختصاصات تلك الهيئة بطريقة تميّط اللثام عن ماصدقات مفهوم تلك الأحقية، وهكذا هو الشأن بالنسبة لجل الأمور التي يلهج البشر بالجدل حولها. هذا بالضبط هو ممكن أهمية تحليل المفاهيم، وتلك هي المهمة الأساسية التي يرام من أجلها تبيان دلالاتها.

* * *

ولتوضيح الكيفية التي يتعين عبرها تحديد سبل تحليل المفاهيم، لنا أن نفترض أن العالم بأسره قد صنف إلى فئتين: فئة تتضمن كل الأشياء التي يصدق عليها المفهوم الذي نعنى بأمر تحليله، وفئة تتضمن كل الأشياء التي لا يصدق عليها ذلك المفهوم. على هذه الشاكلة، يمكن القول إن مهمة التحليل إنما تتلخص في تحديد الخصائص التي يتصف بها جميع أعضاء الفئة الأولى ولا يتصف بها أى عضو من أعضاء الفئة الثانية. هكذا نجد - على سبيل المثال - أن تحليل مفهوم الإنسان القائل بأنه حيوان عاقل، إنما يقرر أن البشر - كل البشر - يتصفون في أن واحد بهاتين الخاصيتين، وأنه في الوقت الذي قد يكون في وسعنا اكتشاف كائنات حية غير عاقلة، أو كائنات عاقلة غير حية، أو كائنات ليست حية وعاقلة، إلا أننا لن نجد كائناً منها يتصف بكونه بشراً. المنطق يبين هذا الأمر؛ القضية:

$$(x) (Ax \rightarrow Bx) \quad (B \text{ يختص بـ } A)$$

تتسق والقضايا التالية:

$$(\exists x) (Ax \cdot Bx)$$

$$(\exists x) (- Ax \cdot Bx)$$

$$(\exists x) (- Ax \cdot - Bx)$$

$$(\exists x) (Ax \cdot - Bx) \quad \text{ولا تتناقض إلا مع :}$$

التعريف الناتج عن التحليل - بهذا المعنى - مظلة يستظل بظلها كل من يصدق عليهم المفهوم المراد تحليله، ولا يستظل بظلها أحد سواهم. لهذا يعد التحليل قاصراً

فى حالين؛ إذا كان غير جامع، أى إذا لم يستظل بظل مظلة تعريفه ماصدق للمفهوم المعنى، أو إذا كان غير مانع، أى إذا استظل بظل مظلة تعريفه مالمس بماسدق لذك المفهوم.

هكذا نجد أن تحليل مفهوم الجامعة القائل بأنها مؤسسة لا يدرس بها إلا الحاصلون على درجة أستاذ ينتج تعريفاً غير جامع، وذلك على اعتبار أنه يفشل فى جعل عدد كبير من الجامعات مستظلة بظله، كما أننا نجد أن تحليل ذلك المفهوم القائل بأن الجامعة مؤسسة تربوية ينتج تعريفاً غير مانع، وذلك على اعتبار أنه يسمح - دون وجه حق - للمؤسسات التربوية غير الجامعية بالاستئلال بظله. وأخيراً، فإن التحليل القائل بأن الجامعة مؤسسة تربوية تدرس الإحصاء قاصر من وجهين، وذلك على اعتبار وجود مؤسسات تربوية غير جامعية تقوم بتدريس تلك المادة، وعلى اعتبار وجود جامعات لا تقوم بتدريسها.

* * *

على كل ذلك، فإنه ليس بمقدورنا الجزم على وجه الإطلاق بقصور أى تحليل ما لم ينتج تعريفاً جامعاً مانعاً، رغم أن المناطقة يؤكون باستمرار على وجوب اختصاص التحليلات الملائمة بتيك الخاصيتين.

أول أمرتجر الإشارة إليه فى هذا الخصوص هو أن ماصدقات المفاهيم لاتظهر فى الكون وهى تحمل بطاقات كتب عليها ما يفيد أنها ماصدقات لتلك المفاهيم. حقاً إننا نطلق على الأشياء - فى مختلف السياقات التى نعى بها - مسميات تفيد كونها كذلك، لكننا نختلف ونتجادل - فى بعض السياقات - حول وجوب تسميتها على النحو الذى غبرنا عليه. هكذا يجمع أكثرنا على أن أداء الطقوس الدينية واجب يتعين على الجميع القيام به، وهكذا نبجل الاتضاع والندم ونحكم بكونهما ماصدقات لمفهوم السلوك الأخلاقى، ثم نفاجأ بنص يعلن فيه اسبينوزا أننا نسمى الأشياء بغير مسمياتها:

«ليست الطقوس فى ذاتها خيراً ولا شراً، وليست تزيد عقولنا كمالاً،
والتقوى انفعال نافع للجمهور... ولكنه عديم الجدوى الذى يستطيع أن
يعمل بالعقل ما تحمل التقوى على عمله بالانفعال؛ ولا يمكن أن يكون
الاتضاع فضيلة، لأنه يتضمن الحزن وشعور المهانة والعجز. كذلك ليس
الندم فضيلة، لأنه نتيجة الجهل الذى يجعلنا نعتقد أنه كان بإمكاننا أن
نفعل غير ما فعلنا. إن فضيلة العقل تقوم فى أن يغتبط الإنسان بعقله
ويطمئن فى نفسه».

وعلى نحو مماثل، نعتقد بالوثنية بوصفها عملاً لا يتسنى لعاقل القيام به، ونفاجأ
بوصية كتبها نيتشه لأخته يقول فيها:

«عدينى إذا مت ألا يقف حول جثمانى إلا الأصدقاء، وأن لا يدخل
على الفضوليين من الناس. ولا تدعى قسيساً ينطق الأباطيل والأكاذيب
على قبرى، فى وقت لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسى؛ أريد أن أدفن فى
قبرى وثنياً شريفاً» (ديورانت، ص 517).

فضلاً عن ذلك، نعتقد بون استدراك بوجوب ذكر محاسن موتانا، ويباغتنا
جوركى بقوله «إن الموت لا يجعل المرء أفضل مما كان عليه»، ونعتقد بالبعث والعدل
الإلهى المطلق، ثم نستمع إلى قول المعرى:

ريب الزمان مفرق الإلفين
فاحكم إلهى بين ذاك وبينى
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً
وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً
ما كان أغناها عن الحالين

كما نستمع إلى قول إرنست رينان - حين سئل ما إذا كانت الأرواح تقضى بفناء

الأجساد - «إن الأرواح العظيمة لا تفنى بالضرورة، لكننى لا أجد سبباً واحداً لجعل بقالتنا خالداً» (كازنتزاكى (1)، ص 190)؛ وتتهم الحلاج بالزندقة والإلحاد، ثم يخبرنا إبراهيم بن فاتك، أنه حين أوتى بالحسين بن منصور ليصلب:

«... رأى الخشبة والمسامير، فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه، ثم التفت إلى القوم فرأى الشبلى فيما بينهم فقال له: يا أبا بكر، هل معك سجادتك، فقال بلى يا شيخ، قال افرشها لى، ففرشها، فصلى الحسين ركعتين... فلما سلم (قال)... اللهم إنك المتجلى عن كل جهة، المتخلى من كل جهة، بحق قيامك بحقى، وبحق قيامك بحقك... وبحق قدمك على حدثى، وبحق حدثى تحت ملابس قدمك، أن ترزقنى شكر هذه النعمة التى أنعمت بها علىّ، حيث غيببت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك، وحرمت على غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرى؛ هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك وتقرباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت عنهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد».

وأخيراً، نعمن فى عداوتنا لكل نوى العقول محدودة المدى، ثم نجد أناتول فرانس يقرر جازماً:

«ينبغى ألا نعدى عقلاً ضيقاً إلا بقدر ما يعادى الرياضى زواية حادة لأن بضع درجات تنقصها كيما تكون قائمة».

* * *

ولتوضيح مرامى من هذه الاقتباسات أقول إن ما نجزم بكونه ماصدقاً لمفهوم بعينه من المفاهيم - لاسيما المجرد منها - ليس بطبيعته كذلك، وقد لا يكون حكمنا بكونه كذلك إلا نتاجاً لموروث ترسخ فى أذهاننا بشكل أو آخر. لهذا السبب، فإن فى الإصرار على وجوب أن تنتج تحليلات المفاهيم تعريفات جامعة لما قررنا سلفاً بكونه ماصدقات

لها، وممانعة لما أفكرنا مسبقاً بضرورة استثنائه، أقول إن في مثل هذا الإصرار ترسيخاً متعمداً لما تم الإجماع عليه، وحكماً قليلاً يحول دون التمرد على الأطر والثوابت التي تم الاعتداد بها. لا شيء - كالتعريفات الجامعة المانعة - يحجبنا عن اكتشاف الجديد، ولا شيء مثلها يعمل على ترسيخ ما يجمع عليه البشر ويحول دون تمردهم عليهم.

بيد أن ذلك لا يعنى بآى حال وجوب رفض التعريفات لمجرد كونها جامعة مانعة، بقدر ما لا يعنى وجوب الاعتداد بها فى حال كونها غير جامعة أو غير مانعة. كل مايعنيه هو أن كون التعريف غير جامع أو غير مانع لا يستلزم بذاته ضرورة وجوب رفضه. ولكى لا نسمح بحركات التمرد التى تستهدف الموروث لمجرد كونه موروثاً، ولكى لا يكون الرفض غاية فى ذاته، يتعين علينا اشتراط أن يكون بمقدور المعتد بتعريف غير جامع أو غير مانع تبيان الأخلاط التى وقعت فى أذهان الذين أجمعوا على تصنيف ماصدقات المفهوم المعنى بطريقة لا تتسق وتلك التى يقررها ذلك التعريف.

ليس لنا لكل ذلك، وصد الباب فى وجه كل مارق عما أجمع الأسلاف عليه، وليس لنا - فى ذات الوقت - فتحه على مصراعيه أمام كل مجدد أو مجدف؛ لنا فحسب أن نستمتع للرافض حين يرفض، وأن نطلب منه تسويغ حكمه بوجود مواطن خلل فيما يرفض.

الانساق الفكرية السامقة - بهذا المعنى - محاولات جادة لإعادة ترتيب أثاث العالم، ولأنها عادة ما تقضى إلى ترسيخ ثوابت جديدة تستعيز بها عن تلك التى قامت برفضها، فإنها تحمل معها بذور فنائها ومعاول تقويضها. هذا بالضبط هو وكذ وايزمان من قوله «إن محررى الأمس هم طغاة اليوم» (Waisman, p. 378).

نخلص من كل هذا إلى أن عملية تحليل المفاهيم تستهدف أصلاً تسويغ جملة أحكامنا البديهية التى تقضى بتصنيف ماصدقات تلك المفاهيم على نحو بعينه، كما نخلص إلى وجوب استدراك تلك الحالات الخاصة التى تتخذ من التمرد وسيلة لإحلال

تصنيفات مغايرة، فللمتمرد - كما أسلفنا - حق رفض ما تم الإجماع عليه في حال قدرته على تبيان أوجه القصور التي تعترى ما أفضى إليه ذلك الإجماع من أحكام.

* * *

ويغض النظر ما إذا كان المرء معتداً بتصنيفات البشر القبلية أو رافضاً لها، فإنه عادة ما يواجه حالات لا تعد من جهة ماصدقات بينة أو مسوغة للمفهوم الذي أراد تحليل دلالاته، ولا تعد من جهة أخرى لا ماصدقات بينة أو مسوغة له. بكلمات أوضح، فإن العالم - سواء أعدنا ترتيب أثاثه أو أبقينا عليه - عادة ما ينقسم إلى ثلاث فئات:

* فئة تتضمن فحسب ماصدقات المفهوم،

* فئة تتضمن فحسب كل ما ليس بماصدق للمفهوم،

* وفئة لا يتضح تماماً ما إذا كان يتعين تضمينها للفئة الأولى أو ما إذا كان يتعين تضمينها للفئة الثانية، وهي ما اصطلح على تسميتها بفئة «شبه الماصدقات». وغنى عن البيان، أن الجدل في أغلب الأحيان يقوم حول أعضاء هذه الفئة الأخيرة؛ فالفيزياء - على سبيل المثال - ماصدق بين لمفهوم العلم، والسحر نشاط يتضح أنه ليس ماصدقاً لذلك المفهوم؛ ولكن، هل يعد علم النفس علماً؟ أو - لكى لا نصادر على المطلوب - هل تعد الدراسات التي تستهدف وصف وتعليل السلوكيات البشرية دراسات علمية؟ وعلى نحو مماثل، يعد الصدق فضيلة، ويعد الكذب رذيلة، ولكن ماذا عن تلك الحالة التي يكذب فيها الطبيب مخافة أن يؤدي علم المريض بحاله إلى وفاته؟ وأخيراً، نعتد بالإيمان بوصفه واجباً وننكر حلول الذات الإلهية في أى شخص بعينه، ثم نستمع إلى قالة من قال - مخاطباً الله عز وجل - «يا منية المتمدن، أفنيك عنى، أدنيك منى، حتى ظننت أنك أنى»، فنتساءل، أيعد العلاج مؤمناً أو كافراً؟

وفى هذا الخصوص أقول إن التعريف الذى يكون بمقدوره تصنيف الماصدقات وما ليست بماصدقات على نحو يتسق مع أحكام بداهتنا، أو بطريقة تمكّن من تبيان

مواطن الخلل فى التصنيف الناتج عن تلك الأحكام، أقول إن هذا التعريف يتخذ بخصوص «شبه الماصدقات» صيغة معيارية، بمعنى أن قدرته تلك تكفل له حق تصنيف الحالات غير الواضحة بذات الطريقة التى صنف بها الحالات الواضحة. إذا كان التعريف القائل بأن العلم نشاط يستهدف تعليل ما يتم رصده من ظواهر قادر على تسويغ أحكامنا البديهية بعلمية ما نعتد به بوصفه علماً، وقادر على تبرير ما اعتدنا باستثنائه من مناشط غير علمية، فإنه سيمتلك حق تصنيف علم النفس وسائر العلوم الاجتماعية والإنسانية بوصفها ماصدقات رصينة لذلك المفهوم، وذلك على اعتبار كونها تستهدف تعليل فئة بعينها من الظواهر التى يتم رصدها.

* * *

ولعله يتضح من نقاش دلالة مفهوم شبه الماصدقات أن لهذا المفهوم أواصر وشيجة بمفهوم المحتمل. إن تصنيف ماصدقات أية فكرة على نحو يتسق وأحكام البداهة السائدة والمفاهيم المشتركة لا يعدو فى واقع الأمر أن يكون تعبيراً عن مرجعية «آفاق توقعات البشر»، وما محاولة تصنيفها على نحو مخالف إلا إفصاح عن الوكد صوب تحقيق ما كان مجرد احتمال. وكما أسلفنا، فإن التمرد - الذى يعبر عن أولى خطوات درب الإبداع - لا يتم إلا بعد أن يكون صاحبه فى وضع سيكولوجى يتهىء معه لقبول ما كان يمكن أن يكون - على عدم كونه - كما أن الإبداع - الذى يعزى له كل تطور حادث فى نتاجات مختلف أنشطة البشر - يعول على تحقيق تلك الفئة من الاحتمالات التى تستحق عناء التحقق.

* * *

الفصل الرابع

نبذ المعرفة

«ليس ثمة سوى بضع خطوات تفصل بين الأمييا وأينشتين».

«كارل بوبر»

هناك وجهة نظر تقليدية مفادها أن المعرفة البشرية لا تعدو أن تكون - فى أسوأ الأحوال - تراكمًا لمجموع ما يحصل عليه البشر من مدركات حسية، ولا تعدو أن تكون - فى أفضلها - تصنيفاً عقلانياً غير واع لتلك المدركات. العقل - من وجهة النظر تلك - أشبه ما يكون بالكفات (الوعاء) الذى تتجمع فيه الإحساسات، والإحساسات أشبه ماتكون بعنب قد حان قطافه؛ وإذا كان ذلك كذلك، فالمعرفة ستكون بالضرورة نبیذاً سائغاً للشاربين.

وبطبيعة الحال، حاول الامبيريقيون الخَلَصُ الخلاص - ما وسعهم السبيل - من الدور الذى يعزى عادة إلى الذات البشرية فى مثل هذا السياق، بما علمت من توكيدهم المستمر على أن المعرفة الحقّة هى تلك التى لا يشوبها أدنى انفعال أو أقل محاباة، ولا تكدر صفوها أية أفكار قبلية أو مقاصد مسبقة. ولقد قدر لوهم المعرفة الخالصة (Pure Knowledge) أن يؤرق هيوم وكانت على حد السواء، وفى الوقت الذى قرر هيوم - نو النزعة اللأ أدريّة المتأصلة - أنه ليس فى وسع البشر العثور على قنينة واحدة من نبیذها، حاول كانت رائد النزعة النقدية أن يبين كيف أن نبیذ الامبيريقية - حتى على افتراض وجود حانة يبتاع فيها ويشترى - لا يحدث أثراً فى الالباب، وأن الباب

البشر تشارك - بطريقة جد محددة - فى صنع ما يستساغ لهم شربه. هكذا تراه يعلن أن عنب الإحساس لا يصبح نبياً ما لم تعتصره - وتعمل على تخميره - تروس المقولات الاثنى عشرة، فهناك فقط يتسنى له أن يحدث ما يحدث فى ألباب البشر.

بيد أن هناك وجهة نظر أكثر حداثة ترتئى أن العقل البشرى لا يشارك فحسب فى خلق نبى المعرفة، بل يشارك - فضلاً عن ذلك - فى خلق حبات عنبه. عنب نبى المعرفة - من هذا المنظور - لا يقدم للبشر على طبق من ذهب، ولا يصبح بطريقة سحرية نبياً؛ فعلى أقل تقدير، لا شئ من هذا القبيل يحدث فى العلم - النشاط المعرفى الوحيد المستحق للتبجيل. الملاحظة - لا الإحساس - هى نقطة البدء الحقيقية فى أى مشروع علمى مشروع، والملاحظة - كئى فعل ذهنى - ليست مجرد إدراك حسى لحدث من الأحداث؛ الإحساس شئ يحدث لنا، لكن الملاحظة فعل إيجابى نقوم بإحداثه، وبالتحضير له، وبالتخطيط من أجله، وهى مشحونة - بطبيعتها - بالمشاكل والفروض والمعايير. ليس من يرى كمن يلاحظ، فالرائى لا يفتح سوى عينيه - وهذا ما يعرف فى أدبيات نظرية المعرفة بالرؤية اللامعرفية (non-epistemic seeing) - والملاحظ يفتح عقله معهما؛ والرائى لا يعنى بأمر توقع ما يمكن حدوثه، أما الملاحظ، فإنه يتوقع حدوث أشياء بون غيرها. باختصار شديد، فإن الملاحظة انتقائية بالتعريف، ولذا فإنها تحتاج إلى معيار للانتقاء (criterion of selection) (Popper, pp. 341 - 343).

ولتوضيح هذه الفكرة الأخيرة، وللتوكيد على حداشتها، تأمل الاقتباس التالى الذى يتحدث عن إمكان الملاحظة فى غياب مثل ذلك المعيار:

«يتعين بداية ملاحظة وتسجيل كل الحقائق بون أى انتقاد أو تخمين قبلى بخصوص أهميتها النسبية. ثانياً، يتعين تحليل الحقائق المسجلة ومقارنتها وتصنيفها على نحو ضرورى فى منطق التفكير. ويتعين ثالثاً استنباط التعميمات من هذا التحليل استنباطاً استقرائياً، على أن تختص هذه التعميمات بأمر تحديد العلائق التصنيفية أو العلية بين تلك الحقائق. رابعاً، سيكون أى بحث آخر استدلالياً قدر ما سيكون

وكما أوضحت فى موضع آخر، فإن بحثاً كهذا الذى يشير إليه وولف غير قابل للتطبيق، بل يعد فى واقع الأمر مستحيلًا. إن ملاحظة «كل الحقائق» أمر يستعصى على البشر، فعدد هذه الحقائق لامتناه ضرورة - وملاحظة «كل الحقائق المتعلقة» لاتسنى فى غياب معيار يحدد الحد الثانى فى تلك العلاقة (الحصادى، 2، ص 85).

* * *

تفترض الملاحظة - على حد تعبير بوبر - وجود نسق من التوقعات التى تمكن صياغتها فى شكل تساؤلات، ووظيفة الملاحظة إنما تكمن فى طرح إجابة تصحح أو تؤكد على تلك التوقعات. هكذا نعيش - عبر كل خطوة يخطوها العلماء فى درب العلم - فى خضم «أفق من التوقعات» التى قد لا نعى بعضها، والتى تشكل فى مجموعها بنى العلم المرجعية.

وبطبيعة الحال، فإن آفاق بوبر وبنائه المرجعية تقترب إلى حد كبير من نماذج كـون المثلثى (Kuhn's Paradigmatic Exemplars)، رغم أن بوبر يعتد بقدرة الملاحظة - فى كل خطوة من تلك الخطوات - على تدمير بنى العلم المرجعية، فى حين أن كون يؤكد على أن عملية التدمير تلك لا تحدث - إن حدثت - إلا إبان الأزمان، قدر ما يؤكد على أن عقلانية رفض أى نموذج أمثل رهن بطرح نموذج بديل، أى بحدوث ثورة علمية (Kuhn, 2, PP. 60 - 70).

أما بخصوص السؤال المتعلق بتحديد أيهما أسبق: الملاحظة (أو الإحساس) أم الفرض (أو أفق التوقعات أو النموذج الأمثل)، فمن الواضح أن نظرية الكفات - التى أتينا على ذكرها - تقرر أسبقية الإحساسات - على المستويين المنطقى والزمنى - وذلك على اعتبار أن الفروض إنما تنبثق من مجموع ما يتم إدراكه، فى حين أن النظرية المحدثه تقرر أسبقية الفروض - على ذينك المستويين - رغم أنها تسمح بإمكان أن يكون

بمقدور الملاحظة تعديل الفروض أو دحضها . وعلى وجه الخصوص، فإننا نتعلم - فى العلم - من الفروض أية ملاحظات يتعين علينا البحث عنها، ومن بناها المرجعية يتحدد مسار اهتماماتنا، وعلى هذا النحو يصبح العقل - المتضمن لأفاق توقعاتنا والمعبر عن بنانا المرجعية - أشبه ما يكون بالكشاف وأبعد ما يكون عن الكفات.

هكذا يغدو العلم استمراراً للإصلاحات «ما قبل العلمية» التى يقوم بها ممارسوه ويحدثونها فى أفاق توقعاتنا، فالعلم لا يبدأ من نقطة البدء، والعالم لا يكتب على صفحات بيضاء، ولا يقوى على التعقيم على افتراضاته المسبقة. إن علم اليوم قد شيد على أنافى علم الأمس، وعلم الأمس قد شيد على صرح أساطير أمس الأول، الذى شيد بدوره على أفق توقعات أحاديث الخلايا. باختصار، وعلى حد تعبير بوبر، ليس ثمة سوى بضع خطوات تفصل بين الأميبيا وأينشتين! (Popper, p. 347).

* * *

على كل ذلك، يتعين - بداهة - أن تكون هناك خطوة حاسمة نتحسس فى آثارها تلك النقلة التى حدثت من اللاعلم - أو ما قبل العلم (Pre-Science) - إلى العلم، فالعلم - فى منظور جل فلاسفته - نشاط متفرد له من الخصائص الفارقة ما يميزه عن سائر المناشط البشرية. هنا نكتشف أن بوبر يختلف جذرياً مع المذهب الذى يعتقد به كون. هكذا يقرر بوبر صراحة:

«... إن بداية تطور المنهج العلمى قد جاءت مع نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد على يد بضعة من فلاسفة اليونان.. هنالك نعثر على قصص تتحدث عن أصل العالم وتحاول تفسير شكل الكون... بيد أن الجديد فيها لا يكمن فى كونها قد استعاضت عن الأساطير بأحاديث أكثر علمية قدر ما يكمن فى الروح النقدية التى حلت محل النزعات النوجماتيكية...»

(لهذا) لم يكن من قبيل المصادفة أن يطور انكسماندر نظرية تتناقض

جملة وتفصيلاً مع نظرية أستاذه طاليس، وأن يطرح تلميذه انكسمانيس وجهة نظر تختلف تماماً مع تلك التي اعتد بها. إن التفسير الوحيد لهذا الأمر هو أن مؤسس المدرسة كان يتحدى تلاميذه كيما يقوموا بنقد نظريته» (Popper, PP. 347 - 348).

وهكذا نجد - من وجهة نظر كارل بوبر - أن الروح النقدية كانت معبراً عن العامل الأساسى الذى أحدث النقلة من مرحلة الأسطورة إلى مرحلة العلم، تلك الروح التى تحققت على وجه الخصوص فى المحاولات التى بذلت للبرهنة على قصور النظريات المطروحة وعلى عجزها عن الاتساق مع ما تتضمنه أفق التوقعات السائدة.

* * *

كون - فى المقابل - يحتج صراحة على قدرة هذا التشخيص على التمييز بين العلم واللاعلم، وهكذا نراه يقرر:

«إن السيد كارل قد حدد جملة النشاط العلمى باللجوء إلى حدود لانتطبق إلا على فعالياته الثورية النادرة... بيد أن رؤية العلم وتطور المعرفة من منظور يؤكد فحسب على تلك الفعاليات النادرة لتعجز عن فهم ذلك النشاط وهذا التطور... وبمعنى ما - وهو معنى يقرب تلك الرؤية رأساً على عقب - فإن الكف عن الجدل النقدى هو الذى يحدد النقلة إلى مرحلة العلم؛ فبمجرد أن تتم هذه النقلة فى أى مجال، فإن مثل ذلك الجدل لا يحدث إلا إبان الأزمات التى تتعرض فيها أسس المجال المعنى للخطر.

إن العلماء لا يسلكون بالطريقة التى يسلك بها الفلاسفة إلا حين يضطرون للاختيار بين النظريات المتنافسة» (Kuhn, 1, PP. 6 - 7).

العلم - فى منظور كون - نشاط يعنى على وجه الخصوص بحل نوع بعينه من المشاكل، يصطلح على تسميتها بالآلغاز (Puzzles) التى تضمن النماذج المثلى

السائدة إمكان الحصول على حلول لها . هنا يلعب المفهوم «العلم العادى» (Normal Science) دوراً فاعلاً فى هذا المنظور، وهو مفهوم يعرفه «كون» على النحو التالى:

«إنه نوع من البحث المؤسس بشكل وطيد على إنجاز علمى تعتد به مجموعة علمية على اعتبار أنه يحدد أصولاً لسلوكياتها المستقبلية»
(Kuhn, 2, P. 10).

(لاحظ كيف أن مفهوم العلم العادى يعول على فكرة أفق التوقعات، فالنماذج المثلى السائدة هى التى تحدد منظور المجموعات العلمية للعالم، وتحدد ما يعد محتملاً بالنسبة لها، وما يعد غير محتمل).

ولكى يكون بمقدور مثل هذا الإنجاز أن يصبح نموذجاً أمثل، يتعين أن يكون بمقدوره فتح الباب على مصراعيه لعدد لامتناه من كل أنواع المشاكل كيما يقوم ممارسو العلم العادى بحلها. وكما يضيف كون، فإن مهمة أولئك الممارسين تتحدد فى حل نوع بعينه من المشاكل، ألا وهى الألفاز:

«الألفاز هى تلك الفئة من المشاكل التى تختبر الأصالة والمهارة فى الحل... إن معيار جودة اللغز لا يكمن فى مدى إثارة نتائجها أو أهميتها. على العكس تماماً، فإن المشاكل الملحة - كعلاج السرطان، وكالتخطيط لسلام عالمى دائم - ليست ألفازاً على الإطلاق، وذلك على اعتبار إمكان عدم وجود حلول لها. ورغم أن القيمة الكامنة لا تعد معياراً للألفاز، فإن ضمان وجود حل لها يعد كذلك» (Kuhn, 2, PP. 36 - 37).

من هذا المنظور، لا يهدف العلم إلى تفسير ما تتم ملاحظته من ظواهر، ولا يعنى ممارسو هذا النشاط باختبار نظرياتهم توطئة لاختيارها أكثر اتساقاً مع ما يقره الواقع من تواترات. إن هذا النشاط - فى مراحل العادية على أقل تقدير - لا يهدف إلا إلى حل المشاكل التى تضمن النظريات السائدة إمكان حلها. بكلمات أخرى، فإن العلم إنما يهدف إلى ترسيخ ما يعتد العلماء به من فروض (أو آفاق توقعات)، والعالم

الحقيقى هو ذلك الذى ينبج فى تببان كيف أن نظريته قابلة لأن تطبق على مجالات لم يكن يعتقد فى إمكان أن تطبق عليها، وفى تببان كيف أن الوقائع تؤكد باستمرار صاحب النظرية.

ولأن معايير اختبار النظريات تشكّل - وفق مفهوم كون - جزءاً لا يتجزأ من صلب هذه النظريات، فإنه ليس بالإمكان المقارنة بين مختلف النظريات، وبذا يفقد الواقع منزلته التى كان تبوأها على يد الفلاسفة التجريبيين والوضعيين بوصفه الحكم الفصل الذى لا تقبل أحكامه أى استثناء. ليست هناك مشاكل محايدة تعنى مختلف النظريات - المنتمية لذات المجال - بحلها، وليست ثمة دلالات محددة تعزى لذات الألفاظ، ومن ثم فإن استعمال مختلف النظريات لذات الألفاظ ليس شاهداً على كونها تتحدث عن ذات الظواهر. ثمة عزل لا مناص منه بين النظريات، وثمة صدع لا سبيل لرأبه بينها.

والواقع أن لفكرة العزل بين مختلف آفاق توقعات البشر أصداء واسعة وتحققات متنوعة فى مختلف أنشطة البشر، لاسيما الأنشطة الفنية والسياسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية (Berlin, P. 55). الجديد فى طرح توماس كون هو كونه يقرر إمكان تطبيق تلك الفكرة على النشاط العلمى الذى ذاع صيت موضوعيته وتم تبجيل عقلانيته. لقد أصبح أنصار النظرية العلمية - من وجهة نظر كون - أشبه مايكونون بالحزب السياسى الذى يعمل على ترسيخ معتقداته السياسية ولا يجد أدنى غضاضة فى سحق خصومه.

هكذا لم يعد العلم مجرد تصنيف غير واع للمدركات الحسية - كما ظن بعض أنصار المدرسة النقدية - ولم يعد مجرد تصنيف عقلانى واع للملاحظات - كما ظن أنصار المدرسة الإحاضية - بل غدا تصنيفاً محايداً لنوع بعينه من الملاحظات، ألا وهو ذلك النوع الذى تقرر النماذج المثلى السائدة قدرته على دعمها.

* * *

الفصل الخامس

محنة اللا أدري

«التعبير عن حقائق جديدة بلغة قديمة مستحيل».

«فريدريك وايزمان»

يُمكن اللأدرى بمحنة لا يدرى بها الأدرى. إن الشكوك لتكاد تساوره حول كل شئ؛ حول وجود إله كلى القدرة كلى العلم، وحول وجود ذوات مغايرة لذاته، تفكر كما يفكر، وتتفعل كما ينفعل، وحول وجود عالم مادي يفارق جسده ويسبب ما ينتابه من أحاسيس.

بيد أن اللأدرى ليس مثالياً، فالعالم عنده ليس تمثلات لذاته المدركة التى يشك حتى فى وجودها، وإذا اتسع صدره للإذعان للفكرة الديكارتية القائلة بوجود شئ واحد غير قابل لأن يتم التشكيك فيه - ألا وهو كونه يشك - فإنه لا يبدى أدنى استعداد لتقبل ما اعتد ديكارت بكونه مستلزماً من استحالة الشك فى مثل ذلك الشك.

فضلاً عن ذلك، فإن شكوك اللأدرى لا تقتصر على وجود الله والعالم والذات، فلديه مبحث ابستمولوجى لا يقل أصالة عن مبحثه الإنطولوجى. إنه يقرر صراحة - حين يشتط - أنه لا يدرى أى شئ، وأنه لا يدرى حتى أنه لا يدرى؛ فالأدرى إما أن يكون حدثاً ماضياً عفا عنه الزمن، والماضى قد ذهب إلى غير رجعة، أو حدثاً أنياً حاضراً، والحاضر لا يمكن الإمساك به، أو حدثاً مستقبلياً، والمستقبل لما يأت، بل إنه

لن يأتي، فما أن يأتي حتى يكون حاضراً للحظة لا يمسك بها، وسرعان ما ينزوي ويصبح ماضياً.

(١)

فضلاً عن كل ذلك، فإن اللاأدرى يشك في مشروعية النشاط العلمي، الممثل الوحيد لأوج مراحل المعرفة البشرية في ساحة الطبيعة، ويشك في مصداقية النشاط الديني، المعبر عن علاقة الخلق بالخالق، ويشك في إحكام النشاط الأخلاقي، المحقق الحقيقي لقدرة البشر على كبح جماح أهوائهم، ويشك في أصالة النشاط الفني، المفصح المتميز عن قدرات الإنسان الخلاقة. وفي واقع الأمر، فإن اللاأدرى يشك حتى في المعايير التي نعتد بها للبرهنة على مشروعية أي نشاط بشري ولتقويم مدى إحكام أحكامه المعيارية، كالبداية والمنهج واللغة والمنطق.

5

وكما يحدثنا فريديريك وايزمان، فإنه بمقدورنا رصد الباب في وجهه وسحب البساط من تحت قدميه وصم الأذان عن السماع إليه؛ يكفي أن نقول له إن الشك - بطبيعته - لا يكون شكاً ما لم يكن ثمة وقت يتبدد فيه، فالزوال قدر للشك محتوم، وبمقدورنا أن نوضح له كيف أن شكوكه - بطبيعتها - لا تتبدد، طال بها الزمان أو قصر، وأنها - لذلك - شكوك زائفة (Waisman, P. 345 - 350). بمقدورنا أيضاً إنجاز ذات الأمر بالطريقة التي ينتهجها كارل بوبر وذلك بالتوكيد على عجز اللاأدرى عن تبيان طبيعة الشروط التي تكفل في حال توافرها بطلان فروضه. بمقدورنا أن نفعل كل ذلك، لكننا - إن فعلنا - سنكون الأخسرين؛ فمن جهة لن نجد اللاأدرى من يستمع إليه، وهذا أمر لا يضيره كثيراً وهو لا يجد أدنى غضاضة في قبوله، فهو لا يعترف أصلاً بوجود آخرين بمقدورهم الاستماع إليه، بل إنه قد لا يعترف بكونه يقول أي شيء. من جهة أخرى، لن يفيد منكر المذهب اللاأدرى من رؤى أنصاره التي - فيما سنوضح - قد تمكنا من اكتشاف الفجوات المستسرة في صرح المفاهيم التي تشكل خبراتنا أو أفق توقعاتنا على تعبير بوبر (Popper, P. 365).

* * *

ومهما يكن من أمر، دعونا بداية نبدي قدراً كافياً من التعاطف مع هذا اللادري، بأن نحاول التعرف على المحنة المؤسية التي يعاني منها - تلك المحنة التي لا تقتصر على كونه لا يجد موضعاً جديراً بالثقة - عسى أن نكتشف أن يكون لديه مايقول. هذا حق يمتلكه كل من يطلق أحكاماً ينبو العقل لأول وهلة عن الاعتداد بها.

حين يود اللادري الإفصاح عن كونه لا يدري، تراه يقول إنه «يشك في كل الحقائق»، بيد أنه سرعان ما يكتشف أن هذه العبارة قد خانت وكده، إذ أتى للمرء أن يشك في حقيقة كونه يشك؟ وأتّى له أن يشك فيما يعلن صراحة كونه حقائق؟

ولكن أى بديل يتسع لإمكان أن يفصح عن مراده؟ إن القول بكونه «يشك في كل الأوهام» قابل لأن يرد عليه بالتساؤل «ومن منا يعتد بالأوهام؟»، وبذا يتضح أن قوله لا يعدو أن يكون تحصيلاً حاصلًا يخلو من أية معلومات أصيلة. باختصار إن موضع الشك إما أن يكون حقيقة يستحيل الشك فيها أو وهماً لا يجدى التشكيك فيه. (شئ من هذا القبيل يحدث عندما يُجادل بالقول بأن المعجزات إن كانت من الله فإنه لا يستكثر منه شئ، فهو القادر على كل شئ، وإن لم تكن منه فإنه لا تجدى في البرهنة على وجوده).

على ذلك، فإن الإشكالية التي تواجه اللادري في هذا السياق ليست على درجة كافية من التعقيد، فبمقدور اللادري من جهته أن يقرر أنه «يشك في كل الأمور»، على اعتبار أن لفظة «الأمور» تعد لفظة محايدة لا تقرر صراحة قيم صدق مواضع التشكيك، وبمقدوره من جهة أخرى أن يعدد مواضع شكه موضعاً تلو الآخر دون اللجوء إلى أية تعميمات. بكلمات أخرى، فإن القوالب التي تجهزها اللغة - حين يعن لنا الحديث عن مواضع الشكوك - تسمح للادري بمراوغة الحقيقة المنطقية التي تقرر أن الوسط بين الوهم والحقيقة مرفوع ضرورة في السياق المعرفي. ورغم إمكان خلاص اللادري من تلك الإشكالية - التي قد تبدو مفتعلة - إلا أن سبيل خلاصه منها يلمح إلى كونه يواجه صعوبات لغوية قد لا تعترض الأدري.

«... شكوك اللأدرى تلقى بظلالها على الحقائق الكامنة خلف استعمال اللغة، تلك الأوجه الثابتة من الخبرة التي تجعل بناء صرح المفاهيم أمراً ممكناً والتي تستشرى في استعمال أكثر الكلمات ألفة... (فما عساه أن يفعل؟) ... أترأه سيكون مستعداً لفصم العرى القائمة بين التجارب الحسية التي تكون صلب مفهومنا للأشياء المادية، ويبطل ما أنجزته اللغة؟ أم ترأه سيفضل العيش في «فريوس الظاهراتية» - ذلك العالم الذي يخلو من الجواهر ويمتلئ بالمعطيات الحسية» (Ibid.,).

وفي معرض تحليلنا لهذا النص، نشير بداية إلى تلك الأسطورة التي نتحدث عن لا أدري لم ينبس طيلة حياته ببنت شفة! لقد كان يوجس خيفة - إن تحدث - أن يقال إنه يدري بوجود ذات مغايرة لذاته يتحدث إليها، ومن ثم لن يكون في وسعه الإفصاح عن شكوكه في وجودها. هكذا تحول اللغة - بشكل غير مباشر - دون إفصاح اللأدرى عن شكوكه، فمجرد إفصاحه عنها - بأية طريقة - يفترض بطلان مارام الإفصاح عنه.

وعلى نحو مماثل، وهذا ما يشير إليه وايزمان في الفقرة التي اقتبسناها لتونا، فإن هناك صعوبة تواجه اللأدرى حين يود التعبير عن شكوكه في وجود عالم مادي مغاير لذاته؛ إنه ملزم من جهة بتفسير تلك الإحساسات التي تعتريه أثناء عمليات الإدراك، ويريد من جهة أخرى أن يقرر أنه ليس في حوزته من الشواهد ما يضمن وجود علة مفارقة لتلك الإحساسات. كيف يتسنى له إذن أن يصف خبراته؟ ليس في وسعه القول - على سبيل المثال - بوجود شجرة مفارقة ترسل له ما يسبب الأحاسيس التي تنتابه، فهو لا يعتد أصلاً بوجودها؛ وليس في وسعه أن يلتمس في التعبيرات «الفينومولوجية» ما يسعف حاجته، فقله «إنها تتشجر الآن هنا» (it is treeing now and here) يلزمه بما لا يود الالتزام به، وعلى حد تعبير وايزمان، فإن «رائحة الشيشية» تنبعث حتى من مثل هذا الفعل الواهن (Ibid.,). فضلاً عن ذلك، فإن الضمير

المشار إليه في تلك القالة إنما يشير في واقع الأمر إلى تلك الشجرة التي ينكر درايتها بوجودها . وكما يضيف وايزمان:

«إن اللأدرى يعمل جاهداً وبصعوبة قصوى كي يعبر عن نفسه بلغة لا تلائم مقاصده... إن محاولته النفاذ إلى الأغوار العميقة يرغمه على غرض الطرف عن اللغة التي يعبر بها عن شكوكه، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه يهذى؛ لكنه لا يهذى، فلكي يعبر عن شكوكه بطريقة لا لبس فيها، يحتاج إلى لغة جديدة؛ فالتعبير عن حقائق جديدة بلغة قديمة مستحيل» (Waisman, P. 367).

* * *

يتضح من كل هذا أنه ما كان لنا أن نكتشف أن اللغة - وفي بعض السياقات مجرد استعمال اللغة - تلزمنا قول ما لا نريد قوله لو أننا قمنا بوجد الباب في وجه اللأدرى عبر احتكام متسرع لأحكام البدهاة والمنطق. إن شكوك اللأدرى تثير - بشكل غير متوقع - احتمالات ما كنا لنعتقد بإمكانها في حال رفضنا لتلك الشكوك؛ إنها تنير عتمة الأسس التي شيدت عليها مفاهيم اللغة.

لست - بأي حال - أحاول الدفاع عن المذهب اللأدرى، وآية ذلك أنني لم أقم بتسويغ الأفكار التي يعتد بها الشكاك، بل إنني أذهب إلى أنهم يرتكبون أغلاطاً فاضحة، ويخلطون بين مفاهيم يتعين التمييز بينها. كل ما في الأمر هو أنني أحاول تسويغ الفكرة القائلة بوجوب إبداء قدر كاف من التعاطف مع كل معتد باللأدرية، وذلك على اعتبار أنهم يواجهون محنة لم نكن نتحسس السبيل للدراية بكونهم يواجهونها.

هناك - فضلاً عن الصعوبات اللغوية المتعلقة بإمكان الإفصاح عن المذهب اللأدرى - صعوبات منطقية خاصة. وللتعرف على مثل هذه الصعوبات دعونا نفحص الطريقة التي يشكك بها اللأدرى في مشروعية المعايير المنطقية السائدة لتقويم البراهين. إنه يشكك في تلك المشروعية على النحو التالي:

حين يحاول المرء أن يسوغ نتيجة يود الخلاص إليها، فإنه سيعتد ضرورة بإحدى السبل التالية:

* (س) لأن (ص)، و(ص) لأن (ع)، و(ع) لأن (ل)،....

هنا يتم تسويع النتيجة (س) باللجوء إلى مقدمة أخرى هي (ص)، وحين يُطلب تسويع (ص) يتم اللجوء إلى قضية أخرى هي (ع)، وهكذا. فى هذا السياق يحتج اللأدرى قائلاً بأن هذا البرهان ينطوى على متراجعة لامتناهية، ومن ثم فإنه عاجز عن البرهنة على صحة تلك النتيجة.

* (س) لأن (ص)، و(ص) لأن (ع)، و(ع) لأن (ص).

واضح هنا أن البرهان يصادر بشكل غير مباشر على المطلوب، وذلك على اعتبار أن المبرهن يفترض صحة ما يود البرهنة عليه، فضلاً عن كونه يتناقض مع المبدأ المنطقى القائل بأن ما يفسر أمراً غير قادر على أن يفسر به.

* (س) لأن (ص)، و(ص) صادقة بداهة.

بيد أن البداهة - فيما يوضح اللأدرى - أمر نسبي، فما يعد بالنسبة لشخص ما أمراً صحيحاً بداهة قد يتضمن بالنسبة لآخر إحالة منطقية. إن البداهة تتعلق بوضـ سيكولوجى - هو الوضوح للعيان النفسى - ومن ثم فإنها لا تصلح بوصفها معياراً موضوعياً لتقويم البراهين أو لإثبات صحة نتائجها.

* (س) لأن (ص)، و(ص) صادقة.

هذا هو برهان الجزمية الذى يعتد بالأمور على علاقتها دون جدل، ومن البين أن الجزمية غير قادرة بطبيعتها على تسويع أى أمر.

* (س) لأن (ص) ترجح - على المستوى الاستقرائى - صحتها.

هنا لن يجد اللأدرى أدنى صعوبة فى تبيان كيف أن الاستقراء عاجز عن إثبات

صحة أية نتيجة، وذلك على اعتبار أن الاستقراء - بالتعريف - لا يضمن صحة نتائجه حتى فى حال ثبوت مقدماته.

ولكن ما أن يشرع اللأدرى فى التشكيك فى المعايير المنطقية السائدة على النحو الذى سلف تبيانه حتى يكتشف أنه يحتاج إلى ما يسوغ تشكيكه؟ وما أن يشرع فى إنجاز هذه المهمة حتى يكتشف أنه قد سقط فى فخ الاعتداد بما يحاول البرهنة على وجود عدم الاعتداد به؛ إذ أتى له أن يجادل بسبيل يشكك فى مشروعيتها؟ وإذا استحال ذلك، فكيف يتسنى له الإفصاح عن قوله بأن المعايير المنطقية فى حاجة إلى ماييرر مشروعيتها، وبأن كل محاولة للتبرير ستستند بدورها إلى معايير منطقية إما أن تكون متماهية مع تلك التى يحاول تبريرها - وبذا يقع فى مصادرة على المطلوب - أو تكون مغايرة لها - وبذا يقع فى فك متراجعة لا متناهية؟

فضلاً عن ذلك، فإن اللأدرى غير قادر - على المستوى المنطقى - حتى على القول بعدم قدرة الآخرين على فهم ما عنّ له أن يقول. كما أشرت فى موضع آخر:

«إذا استحال وجود أى دليل على أنك تفهم ما أقول، استحال فى الوقت ذاته وجود أى دليل على أنك تفهم القول بعدم وجود دليل على أنك تفهم ما أقول. بعبارة أوضح، فإن الفيلسوف الذى يذهب إلى استحالة وجود فهم مشترك لن يجد - إن صح ما ذهب إليه - من يفهم ما يقول، فإن وجد مثل ذلك الشخص بطل ما ذهب إليه» (الحصادى، 1، ص 130 - 131).

هكذا يتبين لنا أنه ليست هناك وسيلة - أنجع من وصد الباب فى وجه الآخرين - بمقدورها أن تقضى إلى تضيق أفق توقعاتنا. أن تلزمنا اللغة بقول ما لا نود قوله لم يكن أمراً محتملاً، فاللغة فى منظورها التقليدى أداة للتواصل نعبّر بها عما يعن لنا أن نعبّر عنه. أن يلزمنا المنطق بالإذعان إلى قواعده طوعاً، وأن يلجم قدراتنا على التشكيك فى صحة قواعده، أمران لم يكن بمقدورنا اعتبارهما فى عداد الإمكان، فالمنطق - فيما كنا نحسب - معيار محايد قادر على حسم أى جدل. ذاك على وجه الضبط هو مكن

أيضاً، فإن محنة اللأدرى تبين أمراً لا يقل أهمية؛ في وسعنا الإفادة من آراء الآخرين نون أن نعتد بها؛ كل ما نحتاجه هو أن نبدي قدراً كافياً من التعاطف معها، عسى أن نكتشف بدائل توسع من آفاق توقعاتنا لم يكن بمقدورنا مجرد تخيلها. وكما يقرر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «الحر والنور»، يتعين علينا «أن نشارك بقلوبنا في كل شعور عبر عنه صاحبه بإخلاص، أياً كان مذهبه».

* * *

الفصل السادس

تطور العلم

«إن الله لا يلعب النرد فحسب، ولكنه في بعض الأحيان يلقيه
حيثما لا يرى».

«ستيفن هوكينغ»

أحرز العلم فى القرون الأخيرة تطوراً ملحوظاً على المستوى المعرفى، وأحرزت التقنية - صنعة العلم - فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين تطوراً باهراً على المستوى العملى، وبذا تمكن الإنسان من الخلاص من كثير من المعوقات التى كانت تحول دون تحقيق مقاصده بأسرع وقت ممكن وبأقل قدر من التكاليف.

ورغم أن التقنية تعبر عن نشاط مغاير تماماً للعلم - وذلك على اعتبار أن وظيفتها تتعين فى السيطرة على مقدرات البيئة وتسخيرها لخدمة البشر، فى حين أن العلم لا يعنى إلا بأمر تحليل ما تتم ملاحظته من ظواهر - إلا أن توظيف نتائج العلم عبر سبل التقنية قد رسخ عند البعض فكرة مفادها أن العلم إنما يتطور على نحو يقترب فيه من معرفة النواميس التى تحتكم سير الظواهر الطبيعية وتتنظم تواتراتها، بقدر ما رسخ لديهم إمكان رأب الصدع القائم بين القانون العلمى والقانون الطبيعى.

من هذا المنظور - الذى سوف نحاول البت فى أمر مشروعيته - يتضاعل حجم الهوة التى تفصل بين النظرية العلمية (أفق التوقع) والواقع المنظر بشكل مطرد، وبذا يقترب ممارسو النشاط العلمى رويداً رويداً من تلك اللحظة التى لن يكون فيها

مايستدعى الكشف أو التعليل، أى اللحظة التى يكون فيها علم العالم بنواميس الكون علماً كلياً.

على ذلك، فقد طُرح تصور للعلم ينكر صراحة مشروعية الحديث عن تطور النشاط العلمى على هذه الشاكلة، ويؤكد على حدوث ثورات علمية أشبه ما تكون بالثورات السياسية التى تعمل على الإطاحة بالرموز والمفاهيم «الرجعية» السائدة قبل حدوثها. من هذا المنظور المغاير، يركس العلم على عقبيه بطريقة يستحيل معها الجزم بكونه يحدث أى نوع من التطور أو بكونه يقترب من الواقع المنظّر.

* * *

والواقع أن حسم الجدل بين ذينك المنظورين (المنظور التقليدى الوضعى والمنظور الذى ذهب إليه توماس كون وبعض أنصاره) يتطلب بداية تعريف مفهوم القانون العلمى (scientific law) والقانون الطبيعى (natural law) - وهما مفهومان دأب بعض فلاسفة العلم على الخلط بينهما - وذلك على اعتبار أن الخلاف حول ما إذا كان العلم يحدث أدنى تطور لا يعدو أن يكون خلافاً حول ما إذا كان بالإمكان اعتبار القانون العلمى تقريباً (approximation) للقانون الطبيعى.

على أن قائلاً قد يقول إن الجدل حول تطور النشاط العلمى يخلو أساساً من أى مغزى فلسفى، فهو قابل لأن يحسم عبر فحص امبيريقى للسبل التى اختطها ذلك النشاط لنفسه بالفعل، ولذا فإنه أقرب لأن يكون جدلاً تاريخياً خالصاً. من هذا المنظور يعد شأن الحديث عن تطور العلم كشأن الحديث عن تطور الكائنات الحية وكشأن الحديث عن تطور الحضارات البشرية، والفيلسوف - حين يعنى بمثل هذه الأمور - إنما يتجاوز نطاق اختصاصه ويغامر بإمكان أن يكتشف المؤرخون من الوقائع ما يتناقض والأحكام التى خلص إليها. فى هذا الخصوص، أعد أن يكون فى وسع التمييز الذى سوف أعنى بطرحه بين مفهومى القانون العلمى والقانون الطبيعى تبين كيف أن مثل هذا الاعتراض يفترض إمكان دراية البشر بأمور يستحيل عليهم حسمها.

ولكى تتضح الفوارق الجوهرية التى يمكن التعويل عليها للتمييز بين هذين المفهومين، سأقوم بعقد مقارنة بين الوضع الذى فيه العالم نفسه حين يحاول صياغة قانون علمى ويعنى بأمر التدليل على مصداقيته، ووضع شخص كلف بتحديد قوانين لعبة - كالشطرنج - لا يدري بأصولها عبر مشاهدته لمجموعة من المباريات. إنه مطالب بتحديد قواعد تلك اللعبة دون الاستعانة بأحد، ودون التعويل على أية معلومات، باستثناء تلك التى يستقيها من مراقبته لتلك المباريات.

لنا فى هذا السياق أن نتخيل أن صاحبنا يلاحظ فى أول مباراة فى الشطرنج يشاهدها أنها تقام بين لاعبين لا ثالث لهما، وأن ينتبه إلى رقعة الشطرنج تتشكل من عدد بعينه من الخانات التى قسمت على شاكلة بعينها ولونت باللونين الأبيض والأسود. بعد ذلك، نفترض أنه قد فطن إلى أن اللاعب الذى بدأ اللعب قد قام بتحريك البيدق الرابع من جهة يمينه، وأن اللاعب الثانى قد بدأ بتحريك البيدق الثانى من جهة يساره. أيضاً، قد ينتبه صاحبنا إلى أن تحريك كل نوع من الأحجار إنما يتم بطريقة محددة، فالقلعة على سبيل المثال تتحرك يمناً ويسرى، ولا تتحرك بشكل قطرى، والفارس يتحرك خطوة إلى اليمين أو اليسار متبوعة بثلاث خطوات أمامية، وقد يتحرك مبتدئاً بهذه الخطوات الثلاث يمناً أو يسرى ثم يتبعها بخطوة أمامية. فضلاً عن ذلك، قد يتصادف - فى كل المباريات التى يشاهدها صاحبنا - أن تتحرك القلعة مباشرة بعد حركة الفيل، فيظن خطأ أن قواعد اللعبة تنص على هذا الأمر. أيضاً، فإنه بمقدورنا تخيل أن ينتبه المراقب لحدوث تحركات تنص تلك القواعد على وجوب الالتزام بها، ولخلل ما فى حرصه على تتبع مجريات اللعبة قد يقوم بتعديل ملاحظته لينتهى إلى صياغة خاطئة لتلك القواعد. وأخيراً، قد يحدث ألا يكون اللاعبان على دراية كافية بأصول هذه اللعبة فيقومان بتحريك الأحجار بطريقة لا تتسق وتلك الأصول.

فى نهاية المطاف وبعد أن يستقر صاحبنا على استقراء بعينه لمجمل القواعد، لصاحبنا أن يلجأ إلى لائحة أعدت خصيصاً كيما يقارن بين تصوره لتلك القواعد والقواعد التى يتوجب أن يلتزم بها لاعبو الشطرنج بالفعل. نظرياً ثمة إمكانات ثلاثة:

أن تسعفه الظروف - فضلاً عن دقة ملاحظاته - ويخلص إلى تصور يتطابق تماماً وقواعد الشطرنج - وبذا تكون نظريته صادقة - أو أن يخلص إلى تصور خاطئ جملة وتفصيلاً، أو أن يصيب تارة ويخطئ أخرى.

بطبيعة الحال، يتسع المقام ها هنا للحديث عن التطور؛ كل ما نحتاجه هو افتراض أن يطلع مراقب آخر على تصور صاحبنا - ليفيد منه - وأن يتسنى له أن يراقب المزيد من المباريات؛ في هذه الحالة يرجح أن يكون هذا المراقب أوفر حظاً من صاحبنا وأن يخلص إلى صياغة أكثر دقة. وعلى هذا النحو، قد تقترب رويداً رويداً من معرفة قوانين اللعبة، وقد ننتهي إلى معرفتها بطريقة تخول لنا الجزم بصحة (أو بطلان) أى تصور يهدف إلى صياغتها.

حال العالم - كما لا يخفى - يتشابه إلى حد كبير مع حال مراقبى لعبة الشطرنج، وإن اختلف عنه فى أمر يتعلق على نحو وثيق بحديثنا عن مفهوم التطور العلمى. إن العالم لا يعدو أن يكون لعبة تحتكمها قوانين بعينها (هى القوانين الطبيعية)، والعالم إنما يبحث عن نظرية تصور له طبيعة العلاقات العلية القائمة بين مختلف الظواهر - تماماً كما كان صاحبنا يبحث عن صياغة مثلى لقواعد الشطرنج - فضلاً عن كونه يقوم بتعديل فروضه ونظرياته بطريقة تتسق مع ما تتم ملاحظته من وقائع - تماماً كما حدث مع مراقبى تلك اللعبة. أيضاً، قد يتصادف أن يخلص العالم إلى نظرية صحيحة، ولخلل ما فى ملاحظاته أو تجاربه أو منهجه، قد يقوم بتعديلها أو رفضها، وقد يحسب أن هناك علاقة علية تقوم بين نوعين من الظواهر، فى حين يكون تواتر حدوثهما راجعاً إلى المصادفة المحضة، تماماً كما حدث مع صاحبنا حين اعتد بوجود تحريك القلعة بعد تحريك الفيل. وأخيراً - وهذا إمكان نظرى يتعين ألا يعتد العالم به - قد يحدث خرق فى نواميس الكون، تماماً كما يحدث مع اللاعبين الذين لا يحسنون الدراية بأصول لعبة الشطرنج.

* * *

وكما أسلفت، ثمة خلاف أساسي بين حال العالم وحال المراقب؛ فمراقب الشطرنج يستطيع في نهاية المطاف أن يقارن بين تصوره لقواعد الشطرنج وقواعد الشطرنج الحقيقية، ويمقنوه أن يعرف - عبر الاستمرار في المحاولة - مدى التطور الذي أحرزه في الاقتراب من «الحقيقة». أما العالم فإن حاله مدعاة للتأسي، فهو يطرح تصوراتة ويقوم بتعديلها دون أن يدري على وجه الضبط - أو حتى على وجه التقريب - الشكل النهائي الذي يتعين أن تكون عليه تلك الحقيقة.

وفي واقع الأمر نجد أن علاقة العالم بالواقع لا تكون إلا عبر ما يطرحه من تصورات نظرية عن هذا الواقع المفترض. لا نجد - بكلمات أخرى - في حوزة العالم تصوراً لقواعد لعبة العالم وصياغة لتلك القواعد، بل إن العالم لا يعرف أصلاً أن للعبة أدنى قواعد. إنه يفترض فحسب أن الطبيعة تسير بمقتضى جملة من النواميس، رغم درايته بعجزه التام عن البرهنة على وجود قانون طبيعي واحد. إنه يفترض وجود تلك النواميس ليجعل نشاطه مشروعاً، ليجعل له هدفاً وغاية تبرر قيامه بالبحث عنها. إذا أخبرنا مراقب الشطرنج أنه ليست لتلك اللعبة أدنى قواعد، فليس لنا أن نتوقع استمراره في البحث عنها، وإن استمر - على ذلك - في طرح تصوراتة فلا ريب أن سلوكه سيكون ضرباً من اللهو غير الخاضع للتقويم المعياري.

وبطبيعة الحال، فإن غياب ثبت ترصد فيها نواميس الكون يستلزم صراحة لاجدوى الحديث عن تطور النشاط العلمي، إذا كان المقصود من مثل هذا الحديث التوكيد على تساؤل حجم الهوة التي تفصل بين القانون العلمي والقانون الطبيعي. القانون العلمي مفهوم ابستمولوجي، فهو يعبر عما يعتد به العلماء بوصفه صياغة لنواميس الكون، أما القانون الطبيعي - كما أوضحنا في مقام آخر - فهو مفهوم إنطولوجي، فكون القانون قانوناً لا يتوقف بأى حال على إدراكنا له بوصفه كذلك (الحصادي، 1، ص 102). هذا بالضبط هو موضع الخلل في الحديث عن مقاربة العلم للحقيقة، فالماهاة بين هو معرفي وما هو وجودي وقف على الدراية التامة بما هو واقع، وهذا أمر يستحيل وفق ما يستحوذ عليه البشر من قدرات، فضلاً عن أن افتراض تلك

الدراية لا يتسق والبحث عن قوانين للعلم؛ إذا كنا نعلم بنواميس الكون، فما جدوى البحث عن تصورات تقريبية لها؟

* * *

على ذلك، قد يقال إن إمكان اللجوء إلى تطور النشاط التقني - بوصفه شاهداً على تطور النشاط العلمي - يظل إمكاناً قائماً؛ فعلى أقل تقدير سيكون بمقدور قدرة التقنية على تحسين سيطرتها على البيئة أن يفسر - إن لم يكن بمقدورها أن تبرر - مدى اقتراب العلم (الذي توظف التقنية نتاجاته) من «حقيقة» مقدرات تلك البيئة. بيد أنه يتعين علينا ألا نغالي في أهمية هذا الشاهد، لاسيما أنه في وسع النظريات الخاطئة أن توظف على ذلك النحو، تماماً كما أنه في وسع ميكانيكى جهول بأصول علم الميكانيكا أن يصلح أجهزة بعينه، وأن يكون في وسعه تطوير قدراته، دون أن يحول ذلك دون إمكان خطأ مبادئه أو دون اكتشافه عدم صلاحيتها.

وغنى عن البيان أن للملاحظة العلمية دوراً فاعلاً في تحديد هوية القانون العلمي - المعبر الوحيد عن أفق توقعات العلماء. إذا استلزم القانون العلمى تقريراً ملاحظياً (observational report) اتضح صدقه، فإن الملاحظة التي يقوم ذلك التقرير بوصفها تعبر عن دعم امبيريقى لذلك القانون، وعادة ما يعتد بها بوصفها ترجيحاً لاحتمال اقترابه من منطقة القانون الطبيعي. (لاحظ أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون «ترجيح احتمال الاقتراب»، ولذا فإنه لا سبيل للجزم بصحة أى قانون علمي). في المقابل، إذا استلزم القانون تقريراً ملاحظياً اتضح بطلانه، فإن هناك مدعاة إما لتعديل القانون أو رفضه أو للتشكيك في استلزامه لذلك التقرير. هذا بالضبط هو الدور الفاعل الذي تلعبه الملاحظة في تشكيل أفق توقعات ممارسى النشاط العلمى (راجع مقال «نبذ المعرفة» المضمن في هذا الكتاب). ولأن العلم يشكل - بدرجة أو بأخرى - جزءاً من أفاق توقعات البشر، فإن الملاحظة تعمل على تشكيل تلك الأفاق، وإن كان البشر لا يعدمون وسيلة للعمل على تجاهلها.

* * *

الفصل السابع

العلم والفلسفة

«العلم معصوم ، لكن العلماء يخطئون».

«أنا تول فرانس»

ثمة صدع مؤس - يتعين رأيه - قائم بين نشاطي العلم والفلسفة اتضح على وجه الخصوص في العقود الأخيرة من هذا القرن. والواقع - فيما يحدثنا مؤرخو العلم - أن التمييز الحاسم بين ذينك النشاطين لم يستتب تماماً إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وإن كانت إرهابات الشعور بلا جدوى كل نشاط - نسبة لممارسي النشاط الآخر - قد بدأت تفصح عن نفسها منذ أمد ليس بالقريب. هكذا يقرر لويس دي بروليه أنه:

«... قد نشأ في القرن التاسع عشر حاجز بين العلماء والفلاسفة، فالعلماء ينظرون نظرة شك إلى تأملات الفلاسفة التي كثيراً ما بدت لهم وقد أعوزتها الدقة في الصياغة، فضلاً عن كونها تدور حول قضايا عديمة الجدوى ولا حل لها.

أما الفلاسفة فلم يعوبوا بدورهم مهتمين بالعلوم الخاصة لأن نتائجها كانت تبدو محددة، ولقد كان هذا التباعد ضاراً بكل من الفلاسفة والعلماء» (فرانك، ص 7).

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا السياق أن نشير إلى عبارة كان لخص بها كارل بوبر - رائد النزعة الإبطالية (Falsificationism) - الوضع الذي يتعين أن تكون عليه العلاقة بين العلم والفلسفة، حيث يقرر أن «فلسفة العلم - دون تاريخ العلم - تعد جوقاً، وأن تاريخ العلم - دون فلسفة العلم - يعد أعمى» (Lakatos, p. 91).

وغنى عن البيان كوننا لا نعدم وجود من أمعن في التوكيد صراحة على وجوب اهتمام ممارسى النشاط العلمى بالقضايا التى تثيرها الفلسفة بخصوص طبيعة نشاطهم. فعلى سبيل المثال، نجد خصوصاً من القليل التالى:

* «أستطيع أن أجزم بأن أقدر من لقيت من الطلاب أثناء تدريسى لهم كانوا مهتمين اهتماماً كبيراً بنظرية المعرفة؛ ولا أعنى «بأقدر الطلاب» أولئك المتفوقين فى قدراتهم فحسب، بل أيضاً فى استقلالهم فى الرأى» (ألبرت آينشتين).

* «الغاية من التعليم العالى هى الوصول إلى الحكمة، والحكمة هى معرفة المبادئ والأسباب، ومن ثم فإن الميتافيزيقا هى أعلى مراتب الحكمة» (هتشنز).

* «يجب أن تسود روح التعميم فى الجامعة، فالمحاضرات يجب أن توجه إلى الذين اعتادوا التعامل مع التفاصيل والخطوات التقليدية للعمل... إن مهمة الجامعة هى أن تساعدك على إهدار التفاصيل لصالح المبادئ» (ألفرد نورث وايتهيد).

* «إن مهمتى هى أن أتحرى كيف أن جيلاً متفوقاً إلى هذا الحد فى ممارسة العلم يتسم بهذا العجز المذهل فى فهمه... إن حالة «الأوتوماتية» التى يجد العلم نفسه غارقاً فيها اليوم إنما ترجع إلى افتقاده طوال تاريخه لمدرسة نقدية تعمل خلال الحركة العلمية نفسها، وتقوم بالدور... الذى قام به النقد بالنسبة للأدب منذ العصور القديمة» (هربرت دنجل).

* «رغم أن العالم هو أنسب من يمثل ثقافة القرن العشرين.. (ورغم أنه يعبر عن) نقطة الذروة فى فى الإنسانية الأوروبية... إلا أن العلم يحوله أتوماتيكياً إلى «رجل

جملى» ويجعل منه إنساناً بدائياً وهمجياً... إن العالم الذى تلقى تدريباً متوسطاً فى هذا العصر جاهل بكل ما لا يدخل فى نطاق تخصصه، ولا بد أن نقول إنه جهول متعلم، وهذا أمر خطير جداً إذ إنه يعنى أن جهله لا يتبدى على نمط الرجل الجاهل، ولكنه يظهر بكل تبجح الرجل المتعلم» (أورتيجا جاسيت) (فرانك، ص 9 - 12).

فى المقابل، لا نجد تأكيداً مناظراً على وجود اهتمام الفلاسفة بالكيفية التى تطورت عبرها أنشطة العلم وعلى وجوب درايتهم بما آل إليه حال العلم فى مختلف مجالاته. فكما أنه ليس فى وسع المرء أن يدرس فلسفة اللغة بون أن تكون لديه القدرة على التحدث بعدد لا بأس به من اللغات، فإن دراسة فلسفة العلوم - كطرح تصورات فلسفية للنشاط العلمى - تتطلب بدورها التعرف على أكثر عدد ممكن من المجالات العلمية. إذ أتى للمرء أن ينظر فى ماهية نشاط يجهل كنه طبائعه، وأتى له أن يطرح أو ينتقد تصوراً للسبل التى يتعين على ممارسى العلم انتهاجها ما لم يكن على ألفة مع تلك التى ينتهجونها بالفعل؟ إن من لا يجيد أصول لعبة سيصبح بالضرورة مدرباً سيئ السمعة والأثر. هذا بالضبط هو ممكن أهمية التصورات الفلسفية التى طرحها مفكرون من أمثال كون ويوبر وهانسون وفابرايند وبراون الذين أجادوا تماماً التحدث بلغة العلماء، وهذا بالضبط هو مبرر عزوف العلماء عن دراسة التصورات الفلسفية التى عنى أنصار المذهب الوضعى بطرحها والتى اتسمت بصيغة تجريدية خالصة.

* * *

ولكن، ما الذى تستطيع الفلسفة أن تقدمه للعلم، وإلى أى حد يكون فى مقدور الفلاسفة توسيع آفاق العلماء؟ ليس فى وسعى طرح إجابة مقنعة لمثل هذه التساؤلات، فالمقام يضيق بسردها، كما أننى لا أزمع أن بحوزتى جملة متكاملة من الوصفات الفلسفية الناجعة التى سيكون بمقدور العلم الاستفادة منها. لهذا السبب، فقد أثرت أن يقتصر حديثى هذا على ماهية العلم من وجهة نظر فلسفية، وعلى التلميح لبعض الإشكاليات ما بعد العلمية التى يثيرها هذا النشاط، على أن أحيل إلى القراء عبء

أول ما أود تقريره في هذا الخصوص هو أن العلم ليس مجرد مجموعة من الكتب أو المعامل أو البشر، لكنه - قبل كل ذلك - نشاط (activity) يتضمن أنماطاً محددة من السلوكيات. والواقع أن شأن العلم في هذا الخصوص هو شأن سائر الأنشطة البشرية القابلة للتمييز الوظيفي والمنهجي (Functionally characterizable activities)، فالدين ليس مجرد نصوص ومعابد ومعتنقين، والشعر ليس مجرد قصائد وأمسيات وشعراء، لكنهما - قبل كل ذلك - أنشطة تتضمن طقوساً بعينها يتعين على المنتمين إليها ممارستها توطئة لأن يكون انتماؤهم مشروعاً.

ولأن ذلك كذلك، فإن العلم لا يشير إلى نمط سلوكي واقعي قائم بالفعل، بل يشير إلى نمط سلوكي يمكن - من وجهة نظر نظرية - أن يتحقق؛ ولهذا السبب، فإنه ليس بمقدور المرء رفض المذهب الذي يقرر - على سبيل المثال - أن العلم نشاط موضوعي بمجرد اللجوء إلى وقائع تاريخية تؤكد على أن جلّ العلماء لم يتحروا التجرد في اتخاذ قراراتهم العلمية، كما أنه ليس بمقدوره افتراض الغايات التي ينجح العلماء بالفعل في تحقيقها بحجة أن افتراض أية غايات آخر من شأنه أن يفضي إلى تقرير أن العلم - كما هو ممارس - نشاط غير عقلاني. وبالجمل، فإن ممارسات ممارسي النشاط العلمي لاتحدد بأي شكل مباشر السلوكيات التي يتعين عليهم القيام بها، ومن ثم فإنها لا تحدد طبيعة ذلك النشاط، فما هو كائن - كما أخبرنا هيوم - لا يقرر ما ينبغي أن يكون، وشيوع أي نمط سلوكي - كندرته - لا يتعلق على وجه الإطلاق بمشروعيته.

على ذلك، فإن العلم - ضرورة - نشاط معرفي ذهني منظم يمكن باستمرار التعبير عن نتاجاته في شكل قضايا (لفظية أو رمزية). وضرورة هذا الأمر إنما ترجع إلى خاصية أساسية من خصائص التفكير العلمي مفادها أن نتاج العملية العلمية قابل

باستمرار لأن يدلل عليه على نحو إمبريقي؛ وكما لا يخفى، فإن القضايا وحدها هي القابلة لأن تختص بتلك الخاصة. وفي واقع الأمر، فإن لغوية نتائج العلم تعد العلامة الفارقة التي تميز النشاط العلمي عن النشاط التقني، وهما نشاطان دأب البعض على الخلط بينهما. إن نتائج التقنية ليست قضايا قابلة لأن تكون موضعاً ملائماً للمعرفة، إنما هي وسائل تستحدث لتحقيق مقاصد يروم البشر - لسبب أو لآخر - تحقيقها. ليس من شأن العالم - بوصفه عالماً - أن يعنى بالكيفية التي يمكن أن توظف بها نظرياته بغية السيطرة على مقدرات البيئة (أو تدميرها). إن الخلط بين العلم والتقنية يفسر - دون أن يبرر - الاتهامات التي توجه عادة للعلم، على اعتبار أنه سبب ما قاسته وتقاسيه البشرية من ويلات الحروب، وعلة ما آلت إليه العلائق الإنسانية من تردٍ وما استشرى فيها من معايير لأخلاقية، بقدر ما يفسر - دون أن يبرر - ذلك التمجيد الذي يحظى به العلم بوصفه المسؤول المباشر عن قدرة البشر على التكيف مع بيئاتهم بطريقة تكفل تحقيق مآربهم (الحصادي، 1، ص 7 - 15).

لاحظ أنني لم أقل بوجود أن يكون النشاط العلمي نشاطاً عملياً، رغم درايتي بما تلعبه الملاحظة والتجريب - وهما نشاطان عمليان - من أدوار حاسمة في طرائق بحث العلوم الطبيعية. والواقع أن هناك من الشواهد ما يسوغ إغفال هذا الأمر. فمن جهة، نجد أن الملاحظة - كالتجريب - لا تتعلق على وجه الإطلاق بالعلوم الصورية (formal sciences) التي تشمل المنطق والرياضيات باختلاف مجالاتها. هذا بالضبط ما يمكن من قيام أنساق شكلية بديلة لتلك التي درجنا على الاعتداد بها، بقدر ما يمكن من إطلاق أحكام تبدو على درجة كافية من الضرورة. من جهة أخرى، فإنني أحرص على تجنب الزعم السائد القائل بأن العلم - بمفهومه الحقيقي المتكامل - لم يمارس إلا نتيجة لتوكيد الفلاسفة المنهجيين - من أمثال فرنسيس بيكون وجون ستيوارت مل - على دور الملاحظة والتجريب. إن رؤية تاريخ العلم - من مثل هذا المنظور الآتي الذي يرسخ ما اصطلاح على تسميته بالشوفونية العصرية - تعرقل إمكان الحصول على استقراء مشروع لوقائعه يتعاطف مع الظروف التي صاحبت حدوثها، وتقضى إلى أحكام لم تكن

لنتنتهى إليها لو كان مسار تلك الوقائع مخالفاً لذلك الذى اتخذته بالفعل. ومن جهة أخيرة، فإن فى الإصرار على الملاحظة والتجريب خطأً مستسراً بين منهج البحث العلمى (وهو واحد متفرد) والبحوث العلمية وطرائق البحث فيها (المتعددة بطبيعتها). إن المنهج - بغض النظر ما إذا كان علمياً أو غير علمى - مجرد فكرة تتم صياغتها فى جملة من القواعد الصورية العامة التى يتوجب تطبيقها من قبل كل ممارسى للنشاط المعنى. البحث العلمى - فى المقابل - ليس فكرة بل تحققاً عينياً وممارسة عملية لفكرة المنهج؛ إنه استقصاء منظم يتخذ من قواعد المنهج العلمى - فى مجال تخصصى بعينه - مطية لتحقيق مقاصد من شأن تحقيقها تصعيد احتمال إنجاز العلم لغاياته. هكذا تتعدد أنماط الأبحاث بتعدد مجالات العلوم ومقاصدها الخاصة، وهكذا يعد الحديث عن تعدد مناهج العلم ضرباً من ضروب الهراء. وكما أسلفت، فإن المنهج العلمى - بقواعده الصورية العامة - واحد ثابت مطلق، أما سبل البحث فتختلف فى طبائعها - على اتفاقها فى كونها تتخذ من تلك القواعد مرشداً يستهدى بهديه فى تحديد المسارات التى يتعين انتهاجها. لكل هذا، فإنه عندما يقرر علماء المنهج - على سبيل المثال - وجوب اختبار ما يخمن العلماء من فروض، فإنه ليس فى وسعهم الإصرار على وجوب أن يتخذ الاختبار من التجريب أداة للحكم. إن هذا الأمر يسرى حتى على المجالات التى يتسنى فيها التجريب الآن ولم يكن يتسنى فيها قبل اكتشاف تقنياته. لن يكون من الملائم - على سبيل المثال - اتهام علماء العرب الأوائل بعدم اتباع قواعد المنهج العلمى فى علم الطبيعة لمجرد أنهم لم يقوموا بالتجريب فى وقت لم تكن سبله متاحة. إن ممارسة العلم يسك بطريقة لا علمية (أو غير عقلانية) حين يفشل فى انتهاج أنجع السبل المتاحة له «أن» ممارسته لذلك النشاط، وليس حين يفشل فى انتهاج أنجع السبل المتاحة لنا «الآن». أن تنكر ذلك هو أن ترتكب ثانية خطيئة الشوفونية العصرية التى أشرنا إليها سلفاً. لهذا السبب، يحق لنا أن نتخيل تمكن البشر من استحداث طرائق بحثية أنجع من التجريب، ولنا أن نقرر «آنذاك» أن التجريب لم يعد سبيلاً علمياً للمعرفة. إن حظ البعض من قدر العلوم الإنسانية لا يعدو أن يكون مترتبة مأساوية

لإغفال هذا الأمر. فضلاً عن ذلك، فإن رؤية النشاط العلمى ومنهجه من هذا المنظور يبين إلى أى حد يقترب النشاط الفلسفى من هذا النشاط، وهذا أمر كنت قد عانيت بتبَيّانه فى موضع آخر (الحصادى، 4، ص 112 - 113).

* * *

ومهما يكن من شئ، فإنه ليس بمقدورنا طرح تعريف يحدد طبائع النشاط العلمى دون التوكيد على وجوب أن يتم استخلاص نتاجاته عبر تطبيق نهج بعينه وبغية تحقيق مقاصد بعينها، كتعليل ما يتم رصده من ظواهر والتنبؤ بما يستسرعنا منها. هذا بالضبط ما يعنيه القول بأن العلم نشاط قابل للتمييز الوظيفى والمنهجى، وهذا بالضبط ما يمكن من إطلاق أحكام معيارية فى سياق الحديث عن هذا النشاط.

هكذا يلعب المنهج، كما تلعب الغايات، أنواراً حاسمة فى تحديد طبائع العلم، وهكذا يتسنى لنا التعرف على طبيعة الإشكاليات الفلسفية التى يثيرها ذلك النشاط. ذلك أن تعريف العلم على الشاكلة التى عرفناه بها لا يحسم نهائياً أمر استكناه طبائعه، وآية ذلك أن التعريف المطروح يثير بدوره جملة من المشاكل الفلسفية التى يتعين طرح حلول لها توطئة لحسم ذلك الأمر. بكلمات أوضح، فإن تعريف العلم على اعتبار كونه نشاطاً ذهنياً معرفياً منظماً يعبر عن نتاجاته فى شكل نظريات يتم اشتقاقها عبر تطبيق منهج بعينه وبغية تحقيق مقاصد محددة، أقول إن هذا التعريف - على شموليته البادية لأول وهلة - يثير التساؤلات التالية دون أن يعنى بتبيان أمثل السبل للإجابة عنها:

- * ما دلالة كون العلم نشاطاً معرفياً، وما دلالات مفهوم المعرفة وأشراطه ومصادره؟
- * كيف تتسنى لنا الموازنة بين كون العلم ضرباً من ضروب المعرفة - وموضع المعرفة صحيح ضرورة - وبين إمكان ألا تتسم نتاجات العلم بسمة المصادقية؟ بكلمات أخرى، كيف نوائم بين معرفية العلم وكونه صدق ما نزع معرفته شرطاً أساسياً من أشراط معرفتنا إياه؟

* على افتراض أنه بمقدور فكرتى المنهج والغاية التمييز بين العلم وسائر الأنشطة المعرفية، كيف يتسنى لنا تعريف المنهج بشكل لا يصادر على المطلوب، وما خطوات هذا المنهج، ومن يمتلك حق تحديدها، وما الذى يعطيه هذا الحق؟ ومن جهة أخرى، ما غايات العلم، وما السبيل للبرهنة على أن العلم يهدف أصلاً إلى تحقيق أية غايات؟

* على افتراض أن العلم يهدف - فيما يهدف - إلى تعليل الظواهر الملاحظة والتنبؤ بمستقبل العالم، ما الذى يعنيه أمر تعليل الظواهر وأمر التنبؤ بها؟

* ما العلاقة التى يتعين قيامها بين انتهاج العلم لنهج بعينه، وبين قدرته على تحقيق المقاصد التى يرنو إلى تحقيقها؟ بكلمات أخرى، هل يضمن تطبيق المنهج العلمى تحقيق تلك المقاصد؟ وإن لم يكن ذلك كذلك، فإلى أى حد يؤثر غياب ذلك الضمان فى عقلانية النشاط العلمى ومشروعية ممارساته؟

* هل للعلم مسلماته التى يتوجب على ممارسيه المصادرة على صحتها دون جدل؟ ما طبيعة تلك المسلمات، وما الذى يلزم العالم التسليم بأى أمر؟

* ما الدور الذى يلعبه تاريخ العلم - الذى يعنى باستقراء الممارسات العلمية المتواترة - فى حل الإشكاليات التى يثيرها التعريف المطروح للعلم؟ وما طبيعة المنهج الذى يتعين انتهاجه من قبل المهتمين بطرح حلول لمثل تلك الإشكاليات؟

* وأخيراً، ماذا عن الانطباع - غير البرئ - الذى يدور فى خلد الكثير من العلماء والذى يمكن التعبير عنه بالقول إن العلم قد قاسى الكثير من ويلات التأملات الفلسفية، وإنه يتوجب علينا مقاومة إغراء شيطان الفلسفة الذى نجحنا أخيراً فى طرده من فردوس العلم؟

هكذا نستبين كيف يعمل النشاط العلمى على إثارة القضايا الفلسفية وكيف ترتبها مشروعية هذا النشاط بحل تلك القضايا. ولكن، أليس فى وسعنا العمل على

ترسيخ الفكرة القائلة بتكامل نشاطى العلم والفلسفة عبر التوكيد على كونهما يتخذان من المنهج النقدى وسيلة لاختبار فروضهما، دون إغفال لعدم تماهى مقاصدهما؟ ألا تعمل الفلسفة - بمفهومها العام - على تشكيل أفق توقعات البشر بقدر لا يقل أهمية عن ذلك الذى يحدثه العلم؟ وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة، ألنا أن نتحدث عن فردوس المعرفة - عوضاً عن الحديث عن فردوس العلم - ونقرر أن الفوز بنعيمه ليس حكراً على أية طائفة من البشر؟ وفى واقع الأمر فإن هناك من الفلاسفة من يؤكد صراحة على تماهى منهجى العلم والفلسفة، فبالتركيب الفلسفى - فيما يقرر زكى نجيب محمود فى معرض عرضه لفلسفة وايتهد - «تركب إطاراً فكرياً يصلح أن يفسر به كل ما عساه أن يقع لنا فى مجال الخبرة، فإن كان هذا هكذا، فلا فرق فى المنهج بين الفلسفة والعلم؛ أليس المنهج العلمى يقتضينا أن نبدأ بمعطيات المشاهدة، ثم نصوغ لها أفضل نظرية ممكنة لتفسيرها، ثم نعود بهذه النظرية المفترضة إلى عالم الواقع...؟ فهكذا أيضاً منهج التفكير الفلسفى عند وايتهد: حصيلة من معلومات أولية، نغترفها من الخبرة المباشرة، نستوحيها فى إقامة خير إطار فكرى ممكن، يفسر لنا ما قد عرفناه من ظواهر الوجود، ثم عودة بهذا الإطار الفكرى إلى حقائق أخرى فى العالم... وكل الفرق بين النظرية فى العلم والإطار الفكرى فى الفلسفة، هو فى درجة التعميم والتجريد» (زكى نجيب، ص 164).

على ذلك يتعين ألا نغالى فى المماهة بين هذين النشاطين، فسبل اختبار النظريات العلمية ليس بئى حال ذات سبل اختبار الأطر الفكرية الفلسفية.

* * *

الفصل الثامن

هاجس الوضوح

«تتضح أمراض الجسد بحسب اشتدادها ، أما أمراض النفس
فإنها تغمض وتبهم حينما تشتد».

«مونتاني»

مفهوم الوضوح (The Concept of clarity) - على ما توحى به دلالة لفظه - ليس على قدر كاف من الوضوح. بيد أن هذا الشأن يعبر عن وضع جد نمطى، فمفهوم البساطة - على سبيل المثال - غاية فى التعقيد، بل إن هناك من الفلاسفة من يذهب إلى استحالة تحليله ؛ ومفهوم الكثرة واحد غير متعدد، ومفهوم الغموض واضح تمام الوضوح، ومفهوم العتمة (opacity) - بدلالته الاصطلاحية - يستحوذ على قدر كاف من الشفافية - وذلك على اعتبار قبول ما يرد بعده من التعبيرات الاستعاضة بما يتكافأ منطقياً معها (الحصادى، 1، ص 103) - ومفهوم المادية - كسائر المفاهيم المجردة بطبيعتها - ليس بأى حال مادياً. وفى واقع الأمر، فإن مفهوم الوضوح ينتمى إلى تلك الفئة التى تعرف بفئة المفاهيم اللامتجانسة (heterological Concepts)، وهى مفاهيم كان رسل وكواين وكربكى على وجه الخصوص قد عنيوا بها، وعادة ما تعرف بالقول إنها تلك المفاهيم التى لا تعد ماصدقات لذاتها.

فى هذا الفصل، سوف أهتم بتحليل مفهوم الوضوح وبتحديد طبيعة ماصدقاته، وبتبيان الفروق التى تميز بينه وبين مفهوم البساطة، كما سأحاول فى ختامه أن أستبين مدى استحقاق الواضح للتبجيل الذى

حظى به فى أوساط الفلاسفة الوضعيين.

* * *

نشير - بداية - إلى أن الواضح (إذا ما استثنينا عالم المرنثيات) قد يكون فكرة وقد يكون سببياً من سبل الإفصاح عنها؛ وإذا كنا نتحدث فى بعض السياقات عن المفاهيم الواضحة، فإن وصفنا لها على هذه الشاكلة لا يعدو أن يكون ضرباً من المجاز، فالواضح فى حقيقة الأمر يتعين فى جملة الأفكار، أو التصورات التى يثيرها المفهوم، أو يعبر بها عن دلالة، ولا يتعين فى المفهوم ذاته.

الوضوح بهذا المعنى خاصة تتعلق بالفكر قدر تعلقها باللغة، وبطبيعة الحال، فإن من شأن عقد مماهاة بين الفكر وسبل الإفصاح عنه - وهى مماهاة غبر بعض المفكرين على عقدها - أن تجعل التمييز بين أمرين : وضوح الفكرة ووضوح سبل التعبير عنها موضعاً لإثارة الشكوك. على ذلك، إن إمكان اتصاف الفكرة بخصائص قد لا تتصف بها بعض سبل الإفصاح عنها مدعاة لرفض تلك المماهاة ومسوغاً لعقد ذلك التمييز.

ويافتراض مثل هذا التمييز، يتسنى لنا أن نلاحظ أن الفكرة قد تكون على قدر كاف من الوضوح دون أن يكون فى وسع صاحبها التعبير عنها بشكل واضح، وقد يحدث فى المقابل أن تكون الفكرة متعلقة بمفهوم على قدر كاف من الغموض، ويكون بمقدور صاحبها الإفصاح عنها بطريقة واضحة تمام الوضوح. ولأن وضوح سبل الإفصاح عن الأفكار مطلب يعتد به فى بعض السياقات، يتعين ألا يكون غموض الفكرة ذريعة لغموض سبل التعبير عنها. بيد أن هذا الحكم - فيما سوف نبين - يحتاج إلى بعض الاستدراكات، فإطلاقه على وجه العموم محفوف ببعض المخاطر.

يحظى الواضح - من وجهة نظر منهجية وأخرى سيكولوجية - بقدر لا يستهان به من التبجيل . هكذا نجد من جهة أن هناك افتراضاً منهجياً مسبقاً مفاده وجوب تفضيل الواضح، كما نجد من جهة أخرى أن هناك نزوعاً بشرياً نحو الأفكار

الواضحة، فنفس البشر عادة ما تعترف عن الأفكار الغامضة، قدر ما تعترف عن سبل التعبير التي يعوزها الوضوح. فى هذا السياق، سوف نقوم بتقويم تينك الوجهتين - المنهجية والسيكولوجية - عبر نقاش ما تفضيان إليه من مترتبات، عسى أن نكتشف أن يكون فى الأخذ بأى منهما تعسف من شأنه كبح آفاق ما قد يعن لنا من أفكار ومن سبل الإفصاح عنها، وعسى أن نجد فى نقاشهما سبيلاً ملائماً لتحليل ذلك المفهوم.

إن منهجية الافتراض القائل بوجوب تفضيل الأوضح تستلزم - فيما يستلزم - أن يتم تحديد مفهوم الوضوح بطريقة تنكر توقفه على أية اعتبارات ذاتية، كما يستلزم وجوب تحديد أشراطه الموضوعية. والواقع أن إمكان قيام معيار للوضوح يفترض بذاته كون الوضوح أمراً موضوعياً (objective matter) قابلاً لأن ينعقد الإجماع حوله. وعلى وجه التخصيص، فإن الاضطلاع بمهمة تحليل هذا المفهوم يتضمن إنكاراً صريحاً للفكرة القائلة بأن الوضوح شأن نسبى، وأنه «فى عين الرائي»، أو أن ما يعد فى عين الواحد غاية فى الوضوح قد يكون فى عيون أقرانه غاية فى الغموض. فضلاً عن ذلك، يتعين علينا - فى حال الاعتداد بذلك الافتراض المنهجي - أن نرفض القول بأن الأمر الواضح قابل بالتعريف لأن يفهم ببذل قدر محدود من إعمال الفكر، على ما يتسم به هذا التعريف من اتساق تام مع أحكام البداهة. ذلك أنه ليس بمقدورنا التعميل على هذه الخاصية فى معرض تحليل مفهوم الوضوح، بما علمنا من اختلاف قدرات البشر على الفهم، وبما علمنا من إمكان أن يسهل استيعاب أمر على شخص وأن يستعصي على أقرانه. لنا - بطبيعة الحال - أن نعتد بهذه الخاصية إذا كنا على استعداد لتقرير نسبية مفهوم الوضوح، ولكن ليس لنا - إن فعلنا - أن نعتبره شرطاً موضوعياً من أشراط المنهج.

على ذلك، فإن نسبية الاعتبارات الذاتية سالفة الذكر ولزوم اطراحها فى سياق تعريف المفاهيم الموضوعية يتسقان وعدم مطلقية ذلك المفهوم.

بكلمات أخرى، قد يكون المفهوم موضوعياً، وبذا يستحيل إمكان اختصاص أمر

بالخاصية التي يقررها ذلك المفهوم بالنسبة لشخص وإمكان عدم اختصاصه بها بالنسبة لآخر، ويكون في ذات الوقت نسبياً بدلالة قبوله للمقارنة والسرد في سياقات أفعل التفضيل. مفهوم الحجم مثال واضح للمفاهيم الموضوعية التي لا تقيم للأمور الذاتية أدنى اعتبار، على كونها تظل قابلة للسرد في سياقات المقارنة وأفعل التفضيل؛ وأية ذلك أننا نقول إن هذا الشيء أعظم حجماً من ذاك، وأقل حجماً من هذا، ولا نقول إنه أعظم حجماً من ذاك بالنسبة لبعض منا وأقل حجماً عند بعضنا الآخر. وإذا قدر لمفهوم الوضوح أن يكون على شاكلة مفهوم الحجم، فإنه يتسنى لنا تقرير موضوعيته من جهة ونسبيته من أخرى، وسيكون في وسعنا تقرير أن هذه الفكرة تعد أكثر وضوحاً من تلك، وأن سبيل الإفصاح هذا أقل وضوحاً من ذاك.

فضلاً عن ذلك، فإن الالتزام بأفضليته الأوضح على الأقل وضوحاً - في حال كونه التزاماً منهجياً - يستوجب بداهة ألا يُطرح التساؤل المتعلق بأى الأفكار (أو سبل الإفصاح) يتعين - لوضوحها - تفضيلها إلا في سياق الخيار بين أفكار (أو سبل الإفصاح عنها) تتعلق بذات المجال. بكلمات أوضح، إذا كان للوضوح معيار موضوعي يقرر أفضلية الأكثر وضوحاً على الأقل وضوحاً، فإنه يتوجب ألا يكون بمقدوره البت في أمر وضوح الأفكار (أو وضوح سبل الإفصاح عنها) التي لا تمت لبعضها بعضاً بأدنى صلة.

* * *

البسيط - كالواضح - قابل بداهة للفهم ببذل حد أدنى من إعمال الفكر، والبسيط - كالواضح - خاصة تختص بها الأفكار قدر ما تختص بها سبل الإفصاح عنها. على ذلك، وعلى الرغم من أن الفكرة البسيطة عادة ما تكون واضحة - بغض النظر عن المعيار الذي تلجأ إليه لتحليل هذين المفهومين - إلا أن وضوح الفكرة لا يضمن بذاته بساطتها القضايا الوصلية - على سبيل المثال - تعبر على المستوى البدهي عن أفكار أكثر تركيباً - أو أقل بساطة - من تلك التي تعبر عنها أجزاؤها، رغم أن تلك

القضايا قد لا تكون أكثر غموضاً - أو أقل وضوحاً - من تلك الأجزاء. فعلى سبيل المثال، القضية (س و ص) تعد أقل بساطة من القضية (س)، رغم أن (س) لا تعد ضرورة أكثر وضوحاً منها. وفي واقع الأمر، فإن بساطة الفكرة تتعلق ببنية سبل الإفصاح عنها، أما وضوح الفكرة فيتوقف فيما يبدو على محتواها، في حين يتوقف وضوح سبل الإفصاح عن الفكرة على ذينك الأمرين في آن واحد.

* * *

ولكن ما الذي يدعونا أصلاً لافتراض أفضلية الواضح؟ نلاحظ بداية أن تعلق مفهوم الوضوح بمفهوم البساطة لا يفيد كثيراً في تحليل مفهوم الوضوح، وذلك على اعتبار أن إشكالية إيجاد معيار ملائم للبساطة لم تحل بعد، كما أن أدبيات هذه الإشكالية تكاد توضح أن ذاتية هذا المفهوم لا تتسق وإمكان طرح تحليل موضوعي له (الحصادي، 3، ص 73 - 84).

فضلاً عن ذلك، فإن الوضوح مفهوم ابستمولوجي، فالواضح لا يكون واضحاً إلا لبشر، كما أنه مفهوم غاية في العتمة، وذلك على اعتبار أن وضوح (س) وتكافؤها مع (ص)، لا يضمنان وضوح (ص)، ومن ثم فإن الحصول على أية شروط موضوعية للوضوح لا يعطينا من مهمة البحث عن الاعتبارات الذاتية التي من شأنها أن تفسر عتمة هذا المفهوم. وأخيراً نلاحظ أن الوضوح ليس بأي حال معياراً لصحة الواضح - فكرة كان أم سببياً للإفصاح. إن كون الفكرة واضحة تمام الوضوح لا يضمن بذاته تطابق ما تقرره مع ما يقره الواقع من أحداث، فعلى سبيل المثال، نجد أن وضوح فكرة مركزية الأرض - كبساطتها - لا يجعل الكواكب تدور حولها، كما أن كون فكرة مركزية الشمس على قدر مكافئ من الوضوح لا يجعل العالم بالصورة التي ارتأها تايكوبراه.

وعلى نحو مماثل، فإن غموض الفكرة ليس مدعاة لبطلانها، وإن استوجب في بعض السياقات تحديدها بطريقة تميط اللثام عن قيم صدقها المحتملة. بيد أن عدم وضوح الفكرة قد لا يكون راجعاً إلى غموض ألفاظها أو غموض بنيته؛ على العكس

تماماً، فقد يكون توخى الدقة مدعاة إلى إبداء قدر كاف من التحفظات وسرد عدد من الاستدراكات التى من شأنها أن تضعف من وضوح الفكرة. والواقع أن الوضوح - فى مثل هذه السياقات - قد يكون مدعاة للتغاضى عن بعض التفاصيل ولإغفال بعض الاستثناءات، ومن ثم فإنه قد يعبر عن طريقة ملائمة للحيد عن جادة الصواب.

* * *

عادة ما تتسم الأفكار البكر - لاسيما تلك التى لم يقدر لها أن تحلل تحليلاً دقيقاً ومتكاملاً - بسمه الهلامية أو عدم التحديد، على إمكان أن تكون خصبة تمكن من تعدد التأويلات وتجعل ملكة الخيال قادرة على ممارسة سطوتها. هذا لا يحدث فى الشعر والأدب المنتثر فحسب، بل يحدث حتى فى الفلسفة وفى العلم. هكذا يقرر وايزمان أن للإمعان فى الإذعان لهاجس الوضوح مترتبات قد لا تحمد عقباها:

«السؤال هو أول خطوة تسكفية يقوم بها العقل فى نزته نحو آفاق جديدة. إن عبقرية الفيلسوف لا تفصح عن نفسها على هذا النحو المثير إلا عبر طرح الأسئلة، فما يميز الفيلسوف ويعطيه منزلته الخاصة هو الرغبة فى التساؤل.

على أن كون أسئلة الفيلسوف غامضة فى بعض الأحيان ليست بالخطورة التى يتوهمها البعض، فلا شئ كالتفكير الواضح يحجبنا عن اكتشاف الجديد. لا بأس من الحديث عن الوضوح، لكن الوضوح حين يستحوذ علينا فإنه يجعل وأد براعم الفكر الحى فى مهدها أمراً جد محتمل. تلك - فيما أزع - هى إحدى النتائج المؤسفة التى أفضت إليها الوضعية المنطقية، وهى نتيجة لم يتوقعها مؤسسوها، وإن اتضحت تماماً فى أعمال بعض أتباعها.

تخيل هؤلاء البشر، وقد وقعوا فى قبضة هاجس الوضوح، يتسألون - معقودى الألسن والخوف يطاردهم - «يا إلهى، هل لهذا أى

معنى واضح؟». تخيل رواد العلم - كبلر، نيوتن، مكتشفى الهندسات
الإقليدية - ... تخيلهم يتسألون هذا السؤال فى كل خطوة يخطونها.
ليست هناك وسيلة أنجح من تلك لتقويض القدرات الخلاقية. ليس هناك
مكتشف عظيم يتخذ لنفسه شعار «كل ما يمكن أن يقال يمكن أن يقال
بوضوح». إن الاكتشافات قد تنبثق من شئ أشبه ما يكون بالضباب
الهيولى. لقد كنت دائماً أشك فى أن الوضوح هو آخر ملاذ لمن لا يمتلك
شيئاً يمكن قوله» (Waisman, pp.360).

وكما أسلفنا، قد يكون الوضوح مدعاة لكبح جماح الخيال وللحيد عن جادة
الصواب، فضلاً عن إمكان أن يفضى الإصرار عليه إلى الدوجماتيكية. إن
الدوجماتيقي قادر باستمرار على جعل الأمور غاية فى الوضوح، ولديه باستمرار
حلول واضحة وجاهزة لكل ما قد يعن لخطره من إشكاليات نظرية. لكن الدوجماتيقي
- بطبيعته - ليس مبدعاً، وليس له أن يكون، وليس ثمة أضيق من أفق توقعاته، وليس ثمة
أوضح من أفكاره.

بيد أننا - وإن كنا لا نعمن فى تبجيل الغموض، ونعتد بالوضوح بوصفه أكثر
السبل ملائمة لنقل الأفكار للأغيار - نرى أن الوضوح ليس مطلباً فى ذاته؛ إن غياب
معيار حاسم لمصادقات هذا المفهوم، وتعذره فى بعض السياقات، وعدم ضمانه لصحة
الأفكار التى تختص به، أمور تجعل من الوضوح نافلة قد نتقرب بها إلى روح العلم،
ولا تجعله فريضة لا تصح ممارسة طقوس العلم إلا بأدائها. الوضوح ما أمكن مطلب
قابل للتحقق، ولكن يتعين علينا ألا نغفل كوننا - فى بعض السياقات - نعلم إلى تجنب
الوضوح استجابة لمطالب بلاغية وجمالية خالصة. وكما أسلفت فى الاعتراف الذى
استهللت به هذا الكتاب، إذا كان الفنان الحقيقى يضحي بالحقيقة قرباناً للجمال، فما
لنا لا نضحى بالفهم ترفاً إليه؟

* * *

بغى الكلم

«إذا اتسعت الرؤية ، ضاقت العبارة».

«النفرى»

«وقولى كيف أعتذر ...

وهل تعرفين ما الكلمات ...

زيف كاذب أشر ،

به تتحجب الشهوات

أو يستعبد البشر».

«غازى القصيبي»

كيف يتسنى للكاتب المبدع أن يروض جياذ الكلمات الجامعة كيما يقتنص من على صهواتها فرائس الخيال؟ كيف يتسنى له أن يهزم - بتسعة وعشرين بيدقاً - كوناً بأسره ويأسر أفئدة الخلق وفؤاد الخالق؟ إنه يعلم تمام العلم أن الجذوة التي تستعر فى أحشائه - بلهيبها المضطرم أبداً - تعاف اتضاع التحقق المتمكن، وتسمو عن التجسد فى أفكار تتلطح بحبر تدلقه الأنامل على صحائف أبكار. إنه يعلم تمام العلم أن الروح تتفسخ حين تتخلق أفكاراً، وأن الفكر يبهت حين يتخلق ألفاظاً، وأن العواطف البشرية تحس ولا تجس، تعاش ولا تعاد، تبت ولا تقال. ألا تراه يزهد فى الإبانة عن آلامه حال اكتشافه أن الكلم يسئ إلى جلالها ويمرغ بهاءها؟ ألا تراه يحمل السر فى قفص طينى يضيق عنه، فيبوح وتخونه جند البيادق، ويغزو وتهزمه ذات الفيالق التى أراد أن يحقق بها الظفر؟ ألا تراه - فى نهاية المطاف - يطلق رصاصه الرحمة على ذلك الجواد الذى يجأ فى رأسه ويرفس بسنابكه جرة الدم المقلوبة التى نسميها قلبه؟ ألا تراه يموت ولا يأسى على موته غير أولئك الذين حملوا ذات السر، وأقضت مضاجعهم ذات الجذوة؟ ألا تراه يتسامى صوب النور كما بذرة تكافح فى سبيل السنابل الكامنة فى أحشائها؟ ألا تراه يتفرد ويتشابه القطيع، يتناسم عشقاً ويتناسل البشر عبثاً؟ ولى عليك

ياصديق... زائدك أنات خرساء وصوت كمان (أمل دنقل)، وزادهم جبن وملق وجنان، فمن يرد عليك فضل أنفاسك ويهب الخلد لقان؟ استمع معى إلى نيكوس عسى أن تجد فى حديثه بعض سلوان:

«إن المبدع يتصارع مع مادة قاسية غير مرئية، مادة أسمى منه بكثير. وحتى أعظم المنتصرين يظهر مهزوماً، وذلك لأن أعرق أسرارنا، السر الوحيد الذى يستحق أن يعبر عنه، يظل نون إفصاح ولا يخضع للإطار المادى للفن. إننا نختنق داخل كلمة، وعند رؤية شجرة مزهرة أو بطل أو امرأة، أو نجمة الصبح، نطلق «آه». لاشئ غيرها يمكن أن يتلام مع غبطتنا، وعند هذه «الآه» نتمنى لو نعيدها إلى فكر وفن لكى نمنحها للبشر وننقذها من فئائنا الشخصى. فكم ترخص عندها وتصبح كلمات ضعيفة متبرجة مليئة بالهواء والخيال» (كاننتزاكى، 2، ص 224).

ثم استمع معى إلى حسرة من اتسعت رؤاه وضاقته عبارته:

«لماذا إذا اتسعت رؤيتى ضقت؟

كيف تكونين حولى ...

ولا خبر من هناك ،

ولا هرج فى الحقول ؟

تعيديننى للذى لم يجئ بعد ...

أعرف أنى بغير خيول ...

وأعرف أنا أضعنا الندى ،

بين خوف الخطى ،

وسراب الوصول .

لماذا .. إذا اتسعت رؤيتى ضقت ؟

أدمن شريك فى السر سرراً وأظماً ...

أراك تضيعين منى ..

فأركض خلف غيابك ، أعرج أعمى !» (طاهر رياض ، حلاج الوقت).

* * *

ينطلق الفن من مبدأ مفاده أنه لا أحد يحتفظ بالحقيقة فى جيبه، وأن الجهل - حين يتسع المقام للحديث عن ملامح العالم الخفى - هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس. المنطق هو أول ضحايا هذا الوحش الرقيق ذى المخالب الناعمة، فالفنان لا يجادل بل يقحم نفسه فى خضم الإحالات المنطقية طوعاً واختياراً. ثمة محكمة واحدة يحتكم إليها المبدع الفنان، لكنها محكمة صورية تصدر أحكاماً غير قابلة للاستئناف؛ أما قضائياتها ومتهموها وخصوم متهميها وشهودها ومحامو دفاعها، فلاريب أنهم يتقمصون ذات الشخص... إنها محكمة الجمال التى شكلتها ربه الخالدة وصاغ قوانينها ذاك الذى لاندري له كنهاً على كونه يستسر فى سرائر كل واحد منا.

ولقدرته المتميزة على التجرد عما هو متمكن فى موضع بعينه ومتزمن فى لحظة بذاتها، يتحد المبدع الحقيقى مع المطلق والأبد. التاريخ عنده أرجوحة تتعلق فى جبل الدهر يتلهى بها البشر دون أن يفكروا يوماً فى الصعود إلى سفحه.

لكل هذا، فإن مهمة النقد الفنى تكاد تكون مستعصية؛ إنها محاولة لتقنين ما هو غير قابل بطبيعته للتقنين؛ إنها محاولة لجدولة الشلالات، لتقدير حجم الأرواح، ولقياس حدة العواطف. وبإلحاح، فإن هناك حداً أدنى بمقدور الناقد إنجازه، لكن شأنه هو شأن من يحاول وصف حال صوفى لشخص قضى عمره يعد الدراهم.

وبطبيعة الحال، كلما ابتعد الفن عن اللغة - القادرة باستمرار على ترسيخ وهم سرد الحثثيات وسراب الجدل - سهل عليه أمر الإفصاح عما يعن له من خواطر. هذا بالضبط هو سر ذلك التبجيل الذى تحظى به الموسيقى، وسر ذلك القلق الذى يستحوذ علينا حين نستمع إلى الشعر.

فى العلم بوجه العالم تخمينات العالم، يحملق الواقع فى وجهه ويخبره بين
الفينة والأخرى؛ هنا أحسنت، وهناك أسأت. فى الشارع تقوم الأعراف سلوك الإنسان
الشائع، وفى المعابد تقوم الكتب المقدسة بشئ من ذات القبيل. بيد أن الفن يختلف عن
كل تلك الأنشطة البشرية. «الصواب»، «الخطأ»، «الحق»، «الفضيلة»، «الزيلة»، كلمات
لا معنى لها فى سياق الفن. فى الفن هناك رؤى، والرؤى ليست فى ذاتها خيراً ولا شراً،
ولا تعد فى هذا السياق باطلة ولا صحيحة؛ إنها رؤى فحسب.

ولأن الفن طريق آخر للاتحاد بالمطلق، فإنه يفتح باباً آخر صوب الله؛ الفنان
الحقيقى لا يفرط لحظة فى المبادئ التى يقرها الدين والأخلاق، وإن عفت نفسه عن ذلك
المقابل الذى يتشوف البشر لتقاضيه عاجلاً أو آجلاً:

«إن قيمة الإنسان لا تكمن فى النصر بل فى الكفاح من أجل
النصر... إنها لا تكمن حتى فى الكفاح من أجل النصر. إن قيمة
الإنسان كامنة فى شئ واحد فقط، وهو أن يعيش ويموت بشجاعة دون
التنازل بقبول أى جزاء.. (بل) إن التقين من عدم وجود جزاء يجب ألا
يفزعنا بل يجب أن يملأنا بالغبطة والكبرياء والشجاعة الرجولية (المرجع
نفسه).

* * *

لا تكمن معاناة المبدع فى خلق الأفكار - التى عادة ما تملأ عليه - قدر كونها فى
اكتشاف واستحداث الألفاظ التى تلائمها. إن العضلة الحقيقية تتعين فى إيجاد كلمات
تخلو من الزيف ولا تخون حرارة الأنفاس، بل تعبر بصدق عن تلك الشحنة التى يعتمل
بها فؤاده. إن روحه السجينة فى قفص اللحم تود أن تجد فى العبارة سبيلاً للخلاص،
بيد أن العبارة التى لاكتها ألسن بنى جنسه لا تقوى على خلاصه، وما أن يشرع فى
البحث عن ألفاظ بكر لم يطمئن من قبل لسان أو جنان، حتى يقع فى قبضة الغموض.
إن إنارة العتمة التى تحدثها ظلال الكلم من شأنها أن تجعل الألفاظ أشبه بالأرواح

الهلامية غير القابلة للتجسد فى أية دلالات بعينها، فالكلمة التى لا ظل لها لامعنى لها. هذا بالضبط هو مبرر عجز قارئ الأدب المبدع عن إبداء قدر كاف من التعاطف مع كاتبه، ولعل هذا ما يعنيه فريجه من حديثه عن تحرير الروح من بغى الكلم.

هكذا يحدثنا كازنتزاكى عن الفخاخ التى ينصبها المبدعون كيما يتسنى لهم اقتناص الألفاظ الملائمة، فيقول:

«كان البدائيون فى الكهوف يكافحون لرسم الوحوش البرية التى يتمنون الإمساك بها. كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا جائعين، ولم يكن لديهم أى قصد فى إنتاج الفن أو الجمال الفريد. وكانت الخطوط العريضة للوحش التى يرسمونها بالألوان أو بالخطوط على الصخرة فتنة أسرة بالنسبة لهم، وقصيدة غامضة ستجذب إليها الوحش الذى سيدخل إليها ويُمسك. لهذا كان من الضرورى جداً أن يكون الشكل دقيقاً قدر الإمكان، وذلك لكى يتم خداع الوحش المطلوب بسهولة أكبر.

بالطريقة ذاتها كنت أضع الكلمات مثل المصائد، أرتبها بكل الدهاء الذى لدى، لكى أقبض على الصخرة المعجزة التى تظل تتقدم أمامى.

وبغية تهدم بصمت جدار الاستطلاع والجهد المشروخ. وكما يتمكن المتوحشون عند اكتشاف اسم الإله أو الشيطان الذى يعذبهم من وضع شكيمة بين فكيه وتهينة المهاميز لجعله يحملهم إلى حيث يرغبون، كذلك فإننى بإطلاق اسم على بطلى أحسست بقوته تخترقنى مثلما تخترق قوة الجواد فارسه، وبدأت أتقحم بتهور إلى الأمام» (المرجع نفسه، ص 221-220).

إن تلويح الأيادى عبر الألفاظ، وعبر سبل البديع والبيان، والإمعان فى الرمزية، واللجوء إلى موروث الأساطير، لا تعدو أن تكون فى واقع الأمر فخاخاً يصطاد بها المبدع ذلك الفرس الذى يرفس بسنابكه جرة قلبه؛ لكنه فرس حرون، وطعم الألفاظ -

على الرغم من رائحة الظفر التي تنبعث من تعبيرات نيكوس - أزهـد من أن يغريه.

لقد كان رينوار يقول - بعد أن تجاوز التسعين - «إنه من المؤسى أن يدنو الموت منى فى الوقت الذى أشعر بتنامى قدرتى على العطاء». لقد كانت الجنوة تستعر فى أعماقه، وما كان لضعف جسد أو لحبائل شباك لوحاته أن توهن من شدتها، إن النبع آت من عين الروح، فأنى له أن ينضب، وأنى لجنادل الأجساد أن تعوق تيار الأنهار؟

* * *

لا يكون الشعور بالجميل جديراً بالتبجيل، ولا يكون الإحساس بالجمال حرياً بالجلال، ما لم يسم عن اتضاع الوكد صوب تحقيق مقاصد يكرر النفع نبعها. هكذا يقرر جان كوكتو «أن الانفعال الناشئ عن عمل فنى لا تكون له قيمة حقيقية إلا إذا كان غير ناشئ عن تهديد عاطفى» (بدوى، ص 108). لاضير أن يكون العمل الفنى نتاجاً لأى نوع من التهديد، فالإبداع الحقيقى إنما يترتب على تأزم يقتضيه كون ما يكون مغايراً لإرادة المبدع، بيد أن الانفعال بالفن لا يعد سامياً ما لم يكن خالصاً لوجه ربه الخالدة. الفن صلاة لايرجو مؤديها غير ثواب الانتشاء بإقامتها، والفن عبادة تكلف بها الأقدار من تصطفهم وتسلب منهم حق الرجاء.

* * *

إذا كان الذهن يبدى استعداداً دائماً لبيع نفسه لأية فكرة، وإذا كانت مهمة الفلسفة إنما تكمن فى تحديد الأفكار التى تستحق عناء التفكير^١، فإن الوجدان يبدى استعداداً مماثلاً لبيع نفسه لأية عاطفة، ومهمة الفن - إن كانت للفن أية مهمة - إنما تكمن فى الإفصاح عن تلك العواطف التى تستحق عناء التعبير^٢، سئل بشار بن برد ذات مرة «بم فقت أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأنى لم أقبل كل ماتورده على قريحتى، ويناجينى به طبعى وبيعه فكرى. فنظرت إلى مغارس^٣ الفطن ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وانقيت حرها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلفها، ولا والله

ما ملك قيادى قط الإعجاب بشئ مما أتى به» (أونيس، ص 41 - 42).

هكذا يكون الفن فى أبهى صورته: مكابدة حرى للأشجان، واصطفاء مقصود
لأساليب البيان، واستشراق متطلع لتحقيق الإمكان.

* * *

ولأن الإبداع - بطبيعته - استشراق متطلع، فإنه يتضمن تخلياً بقدر ما يتضمن
تبنياً . إنه تذل عما كان وتبن لما كان يمكن أن يكون. لكنه تبن مؤقت، ففى الفن «كل
قيمة يبرهن عليها تعد قيمة وضيعة» (كوكتو). إن رغبة الفنان فى رغبته فى تحقيق
الممكن أشد من رغبته فى تحقيقه (أونيس)، ولذا فإنه ما يتبنى حتى يلبث أن يتخلى.
وفى هذا الخصوص، يقرر جان جاك روسو أنه:

«لو تحولت خيالاتى إلى حقائق لما اكتفيت بها، بل لظلمت أتخيل
وأحلم، لاتقف رغبتي عند حد، لأننى لأزال أجد فى نفسى فراغاً لا يملؤه
شئ. إنه نوع من انطلاق القلب نحو مصدر متعة لاعلم لى بها، ولكنى
أحس بحاجتى إليها» (عبد المعطى، ص 30).

الفن والحسرة صنوان، فالفنان يتحسر على أن ما يكون مغاير لما يريد، وما أن
يعبر عما يريد حتى يكتشف أنه لا يعبر تماماً عما أراد، أو لنقل إن ما يريده الفنان
يراوغه مرتين؛ مرة لأنه لا يكون، وأخرى لأنه إن كان لم يعد هو ما يريد. «المستقبل
يظل مستقبلاً، والشاعر، كباحث عنه، يبقى دائماً قبله، ولا يستطيع أن يبلغه. ومن هنا
الحسرة الخائفة: حسرة خلاق يسير إلى مستقبل يعرف أنه لن يدركه. كأنما يشير إلى
شئ يملكه، يطلع من يمينه وأعماقه، إلا أنه يظل بعيداً - يظل إمكان حضور سيائى،
لكن ليس الآن. وفى انتظار مجيئه، يشعر كأنه خارج الزمن فى حالة ليست زمنية
ولأبدية» (أونيس، ص 122).

* * *

ولأن الفن على تلك الشاكلة، فإنه لا يتسم بالوضوح. إن عالم الفن عالم مستور محجوب، فالمراد غير متعين بل يظل إمكاناً هلامياً، والمراد حقيقة - كما أسلفنا - ليس هو تعين مثل هذا الإمكان، بل إرادة تعينه. الواقع المتعين واضح، لكنه ليس جديراً بالاحتفاء، و«الحقيقة عارية، ولذا فإنها لا تثير أحداً» (كوكتو)؛ «إن زهرة أكملت تفتحها تبهج، لكنها لا تغرى. الشئ الذى توضّح - أى لم يعد يخفى إلا الوضوح - ولم تعد له طاقة إلا طاقة الوضوح، يفرغ من الشعر. الشعر يكون حيث العالم فى مثل حياء الحجر وصمته، جاهز، كل لحظة، لكى ينفلق على نفسه، أو يتغطى. العالم الشعرى الحقيقى هو العالم شبه الصامت، المكشوف المحجوب فى أن» (أونيس، ص 124).

والسبب ذاته، يتفرد كل نتاج مبدع، فالإبداع الحقيقى لا يقاس على غيره، بل إنه غير قابل لأن يقاس طبقاً لأية معايير جاهزة: «كل إبداع برق لا يتكرر، وانجاس مفاجئ قائم بذاته، ينظر إليه فى حدود ذاته» (أونيس، ص 103). الفن - كسائر المعجزات - يهن أيما وهن، ويبهت أيما بهت، حين يتواتر، فالجدة والأصالة والتفرد علامات للفن فارقة، وفى الفن، المعنى المطروق حرى بأن يطرق حياء.

* * *

ولكن، ما طبيعة العوائق التى تحول على المستوى الاجتماعى والمستوى الأخلاقى دون إفصاح المبدع عن خلجات نفسه، وما دور تلك العوائق فى جعله يعانى من الأزمات السيكلوجية، وفى جعله قادراً على إبداع ما يتسنى له إبداعه؟

ها نحن نعود ثانية إلى إشكالية تحديد طبائع الإمكانات التى تستحق عناء التحقق، وسوف نحاول - فيما تبقى من هذا المقال - الحديث عن موضوع محدد - هو شعر الفضيلة - نعبّر عبره عما نذهب إليه بخصوص الإجابة عن مثل تلك الأسئلة، دون أن يفوتنا أن نذكر بأن الجزم فى مثل هذه السياقات خطيئة لا تغتفر.

* * *

شعر الفضيلة - كما توحى دلالة التعبير - ضرب بعينه من ضروب الأدب، يعنى

على وجه التخصيص بترسيخ جملة من المبادئ الأخلاقية، متخذاً من مختلف التقنيات الشعرية والمؤثرات الإيحائية مطية للإفصاح. ومبلغ ظنى أن المقابلة التى يفترضها ذلك التعبير ليست تلك المقابلة التى يتم تحديدها عبر اختلاف سبل الأدب فى البوح عن تلك المبادئ الأخلاقية، بل يفترض مقابلة بين مختلف تلك السبل من جهة - سواء أكانت شعراً أم نثراً - وذلك الضرب الذى يعمل على ترسيخ سلوكيات تتنافى وما تقره أخلاق بيأة الأديب من جهة أخرى. بكلمات أخرى، فإن التقابل هنا يقوم بين شعر الفضيلة وشعر الرذيلة، قدر ما يقوم بين أدب الفضيلة على وجه العموم وأدب الرذيلة دون أدنى تخصيص.

بيد أن هذا الأمر - بذاته - ليس مدعاة للإمعان فى تجريد القضية - على طريقة الفلاسفة الذين يهدرون التفاصيل فى صالح المبادئ - بحيث نخض الطرف تماماً عن هوية سبل الإفصاح، وبحيث تتم إثارتها فى قالب لا يقابل إلا بين أنماط السجيا. ذلك أن القضية المثارة هنا تتعلق - كما أفهمها - بنصيب أدب الفضيلة من الإبداع حال مقارنته بأدب الرذيلة، والإبداع - كما أفهمه - لفظة تضطرب أيما اضطراب حين ترد فى سياق لا تستأنس فيه بلفظة الفن، بل لعل الإبداع حكر على الفن.

فضلاً عن ذلك، فإن الأدب - فى مقابل شتى ضروب العلم والمعرفة - لا يعنى بأمر البرهنة أو الجدل، وآية ذلك أن الأديب - شأنه فى ذلك شأن أى فنان آخر - لا يقوم بسرد الشواهد التى تسوغ ما عن له أن يقول، بل ينوط هذه المهمة بمختلف أساليبه البيانية، بما تحفل به من صور وإيحاءات وفائض من المعانى والأحاسيس والإيقاع الموسيقى ينكمش فى حضرتها المعنى الحرقى. الشاعر - فيما يقرر أنسى الحاج - «برى من هذا التلوث الوجدانى... وهو لا يفتش عن كسب المؤيدين... ولا يجند الانتصار، وهو يظن غالباً أن الآخرين أشعر منه » (الحاج، ص 4). باختصار فإن الفنان لينجز بالجمال ما ينجزه الفيلسوف بالعقل وينجزه المتكلم بالنقل.

على ذلك، قد يمعن الفنان فى تبجيل الجمال حتى يكاد يضحي بالحقيقة قرباناً

لربته. هكذا يقرر قدامة بن جعفر أن الشاعر لا يطالب بالصدق فيما يقول، بل بالصدق والبراعة، ولا ضير عليه أن يناقض نفسه في مناسبتين مختلفتين؛ ويقرر ابن رشيق القيرواني أنه بالنسبة للشعراء، الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا فيهم؛ ويقول نيتشه [إننا نحتاج للفن حتى لا تميّتنا الحقيقة] هكذا يصبح الوجد صياغة المعنى - المعبر عن تجربة شعورية بعينها - بمبنى ذى صياغة جمالية، وبذا يغفل كلية أمر مصداقية ذلك المعنى. آنذاك، لا يكون المرام ترسيخ أية أفكار - أخلاقية كانت أو غير أخلاقية - بل يكون التعبير عن دلالاتها أبلغ ما يكون التعبير.

لكل ذلك، ولكى يكون للقضية المثارة أى مغزى بوصفها قضية نقدية - أدبية وأخلاقية - فلسفية فى ذات الوقت، يتعين منذ البدء افتراض أن الأديب لا يمعن فى تبجيل معبودته على النحو الذى سلف ذكره، شريطة ألا نسلب منه حق فعله ذاك إن فعل، مخافة أن نقع فى فخ الحط من نتاج المبدع لمجرد كونه يقر ما لا يتسق وما ندعن إليه من مبادئ وأفكار.

* * *

يقول نيكوس كازنتزاكى فى سيرته الذاتية «الطريق إلى غريكو»:

«بدأت بالتدريج أفهم أنه ليس مهماً ما هى المشكلة، وسيان أكانت صغيرة أم كبيرة، تلك التى تعذبنا؛ الشئ المهم الوحيد هو أننا نتعذب وأننا نجد أساساً لعذابنا. بتعبير آخر، إننا نعمل أذهاننا لكى لا نسمح لليقين بتحويلنا إلى حمقى، ونجاهد لفتح كل باب مغلق نجده أمامنا. «لا أستطيع العيش بون يقين» يقول الشخص المتعجل للاستقرار لكى يجد أرضاً ثابتة يقف عليها... «لا أريد العيش بون شك ولا أستطيع» يصرخ آخرون ممن لا يأكلون بضمير مرتاح ولا ينامون بون كوابيس.... هؤلاء الآخرون، باركهم الله، هم ملح المولى، هم الذين يحمون الروح من التعفن» (كازنتزاكى، 2، ص 160 - 161).

[لا شيء يند براعم الإبداع في مهدها كاليقين] إن من يأخذ الأمور على علاتها، ويركن إلى الثوابت الجاهزة بأطرها الصارمة وقوالبها الجامدة، ويطمئن لما تطمئن إليه أنفس أقرانه [لا يبدع وليس له أن يبدع] ولو كانت علامات مسار تطور الفكر البشرى وقفاً على نتاجه، لنكس ذاك المسار على عقبيه [وارتكس يجتر قالات الأسلاف برتابة مفرطة] لو كان ذلك كذلك، لغدا العالم صغيراً ومملأً ولما كانت الحياة جديرة بالعيش.

[إن بشرية البشر لا تتحقق مكتملة بالإصرار على عقلنة الممارسات الإنسانية ولا بترسيخ ما يتم الاعتداد به من ثوابت، قدر ما تتحقق عبر أعمال قدرات الفن التعبيرية التي ترنو لصياغة ما ليس بمقدور عقالات العقل انتظام سياقاته. إن الرؤى التي كان من شأنها تحسس مسار التطور البشرى واستشراف منتهى مطافاته، إنما ترقل بإزار حاكت أنسجته أنامل تمرس أصحابها إطراح ما أجمع عليه بنو زمانهم من اتفاقات مشتركة. إن العزوف عن المألوف علامة للفن فارقة، والفنان هو أداة استشعار زمانه (الحصادي، 4، ص 28).

[من هذا المنظور، ثمة حد أدنى] شرط لا يبدع المبدع إلا باستيفائه؛ إنه شرط التمرد على الثوابت، وهذا أمر لا يتسنى إنجازَه إلا عقب التعرض لتأزم ناتج عن الشعور بالأغلال التي توثق يديه وتعقل ما يعتمل في قفصه الطيني. هكذا تفضى الأزمات - أو يتعين أن تفضى - إلى إبداعات أكثر ألماً، وهكذا تصبح مجابته نقطة بدء كل سلوك متمرد مبدع.

لنا - لكل هذا - أن نلتمس العذر لمن يشتط لاهجاً بتبجيل التمرد حين يقرر أن وجد الرذيلة أوفر حظاً في التمكين من الإبداع من وجد الفضيلة، وحين يجعل الاحتراق بلهب النار المقدسة - تلك التي تلمع في عين الحياة المدنسة - شرطاً من أشراط الخلق الفنى. لنا أن نلتمس له العذر، فالإفصاح عن وجد الرذيلة عادة ما يكون نتاجاً للتعرض لأقصى أزمت التمرد على أكثر الثوابت ترسخاً في سرائر البشر، ألا وهو الثابت الأخلاقى.

بيد أن الثابت الأخلاقي (ethical constant) قد يكون لا أخلاقياً (immoral constant)، لا سيما حين تكون الممارسات الأخلاقية الاستثناء النادر لما يشيع من سلوكيات. أننذ يغذو السمو الأخلاقي تمرداً على الثوابت السائدة، وما يعتم وجد الرذيلة أن يكون أقل حظاً في التمكن من الإبداع.

ولكن أى سر يكمن في البهجة التي تسرى في أوصال المرء حين يتخذ من العمل الفني موضعاً للإدراك؟ لماذا نسأم من نتائج ثوابت العقل والأخلاق ونستمرأ إمعان الفنان في التمرد عليها؟ أتري لأن الإنسان بطبيعته وسليقته كائن متمرد، أم ترى لأن التمرد يستثير في نفسه قدرات كامنة ليس في وسعه ممارستها حال غيابه؟ لماذا يبيو العالم صغيراً ومملأ حين يلقي - على مقاعد الدرس - بنتائج ثوابت العقل، ويبدو رحباً ومثيراً حين تلهج بضلالات الفن؟ أتري لأن الفنان يقول ما أوجسنا خيفة من قوله؟ أتري لأنه يجار بما لا نجراً على البوح به؟ أية بركة أسنة تحركها حصاة الفن، وما الذي يتحمل فينا، يصب سبابه على رؤوسنا، حين تنشب كلماته أسنة حروفها في رثينا، وحين لا ندرى أى طقس من طقوس السحر قد مارسه على أجسادنا، وأى هاجس من الذعر قد استحاذ على أفئدتنا؟ كيف يتسنى لسحر الفن أن يمس شغاف القلب دون جراحة؟ (المرجع نفسه).

ولكن، لماذا نتكلف - دون حماس - غناء البحث عن إجابة؟ لماذا نحاول عقلنة ما يعيد بالتعريف ضرباً من ضروب التمرد على عقالات العقل وثوابته؟ لماذا نتساعل لماذا تستهويننا إبداعات وجد الرذيلة، لماذا لاندعها تستهويننا وندعها؟ لماذا لا نقول عن الفنان ما قاله الفنان طاهر رياض، ثم نصمت:

تراه على أى نهر مسجى

وفى حلم أية صحرا تراه

كأن به لوثه من حنين

ومساً من العشق

يلقى بجثمانه مثل ذكرى

ويفتح باباً يؤدي إليه

ويقصد كل اتجاه

* * *

جميلاً بجيئ بغيماته ،

بالحقول المساقة للرعى بين يديه ،

بما يتناثر منه على الطرقات .

جميلاً ومتهرئ الانتباه

هو المارق الأبدى

ليس تخطئه العاكفات على نسج ثوب الخطاة

هو الغائب المر

كيف التقت تراه

فمن لهُ من مجون المسافة

من أوقف الوقت تحت خطاه

وهياً غاراً له

واصطفاه

من حدد الجمر

حتى تسيل به روحه ويداه

أنبت إليه

توضأت بالذاريات ،

وفى غاره المتلفت خوفاً

أقامت الصلاة» (العصا العرجاء)

* * *

يحطب فى الماء

يقضى سحاب لياليه

يمسح عن شفتيه

جراد الكلام

* * *

حين يرجع وجه الصباح

تسائله زوجه بكثير من الخوف أين؟

فيرفع عن كتفيه بكفيه رأسه

ويقذف نفسه

على شفرة كائن خباها خلف أضلاعه وينام

* * *

عليه الصلاة

مدلاً بخيالاته،

وعليه السلام (حلاج الوقت)

* * *

استحوذت فكرة إنكار إمكان استكناه طبائع العالم الخفى على الفلاسفة التجريبيين والفلاسفة الوضعيين على حد السواء. بيد أنهم اختلفوا بخصوص المنزلة التى يتعين أن تتبوأها القضايا التى تفصح عن تلك الطبائع، فالتجريبيون يذهبون إلى استحالة تعرف البشر على قيم صدقها، فى حين يقرر الوضعيون استحالة دلالاتها على أى معنى. فضلاً عن ذلك، فقد اختلفوا فى سبل البرهنة على استحالة هذا الاستكناه. سوف أحاول فيما تبقى من هذا الفصل تبيان النهج الذى انتهجه **جورج سانتيانا** التجريبي النزعة - لدعم تلك الفكرة بطريقة قد تمكن من حسم الجدل حول التقويم الأخلاقى للإبداع الفنى.

يجمع الفلاسفة على وجود قيم مطلقة ثلاث هى الحق والخير والجمال، يعنى

استبأ

المنطق بدراسة أولها، ويدرس علم الأخلاق ثانيها، في حين تهتم الاستطائيقا بدراسة آخرها.

في معرض تحليله لهذه القيم، يثبتنا سانتيانا بأن الواقع يعد - على المستوى المنطقي - واحداً من عدد لا متناه من الإمكانيات، وبأن إمكان الواقع - إن صح هذا التعبير - إنما يتميز عن سائر الإمكانيات بكونه إمكاناً تم تحقيقه. حلق لبرهه فيما تراه أمام ناظريك: كتاب وضع على يمين قلم؛ أية إحالة منطقية تكمن في أن يكون القلم على يمين الكتاب، أو في أن يكون الكتاب على يمين مزهرية؟ ولأن الحق - في منظوره التقليدي - هو أن تقول عما هو كائن إنه كائن، وعما ليس بكائن إنه ليس بكائن (أرسطو)، يعد الحق خاصية تتفرد بالاختصاص بها تلك القضايا التي تقوم بوصف حيثيات الواقع (أو حيثيات الممكن الذي تم تحقيقه)، الأمر الذي يستلزم أن الحديث عن الحق في سياقات لا تتعلق بهذا النوع من الإمكان محض هراء. قد يخطئ المرء في وصفه للواقع، فيكون حديثه باطلاً (فالباطل هو أن تقول عما هو كائن إنه ليس بكائن، وعما هو ليس بكائن إنه كان). بيد أنه إن قام بوصف الممكن حال كونه يعرف سلفاً أنه لا يتحدث عن الممكن المتحقق، فإن وضعه سيكون غير قابل لأن يكون موضعاً لتحقيق أية قيمة صدقية.

ولكن، ما الذي يجعل المرء يتحدث أصلاً عن أمور يدرى مسبقاً بعدم تحقيقها؟ يجيب جورج سانتيانا ^٩ بأن الشرور التي يصادفها الإنسان في الواقع (أو فيما يتحقق من إمكانيات) ترغمه على المستوى السيكلوجي على استحداث عالم أفضل (أو يوتوبيا) خال من الشرور. وهذا هو سياق حديث علم الأخلاق، كما أن القبح الذي يصادفه في ذلك الواقع يرغمه - على ذات المستوى - على خلق عالم الفن، وهذا هو سياق حديث علم الاستطائيقا. على ذلك، فإن الإنسان يغفل تماماً إنه بإذعانه لذلك الإرغام إنما ينتقل من سياق الحديث عن الحق إلى سياق الحديث عن الخير وسياق الحديث عن الجمال. ^٩ إن تطبيق معايير الحق - التي تختص بالممكن المتحقق - على حيثيات إمكان الفضيلة

وإمكان الفن لا يعدو أن يكون إساءة لاستعمال تلك المعايير. وعلى نحو مماثل، فإن تطبيق معايير الفضيلة الأخلاقية على حيثيات إمكان الإبداع الفني لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب الخلط بين قيمة الخير وقيمة الجمال اللتين يتعين التمييز بينهما (سوف نعود للتفصيل في هذا الأمر في نهاية هذا الفصل).

من هذا المنطلق - الذى يظل موضعاً ملائماً للنقاش - ألا يحق لأية فكرة متكاملة - شأنها فى ذلك شأن الجنين المتكامل - أن ترى النور وإن لم يعتد بها صاحبها - شأنها فى ذلك شأن الجنين غير الشرعى - عسى أن تجد لها موطناً تستكين إليه فى ملجأ الإبداع الفنى، وعسى أن تثير إمكاناً يستحق عناء التحقق؟ هكذا يقرر جان كوكتو:

«لو عدّ إنسان أباً لمدرسة فى الفن، لأنه هو الذى عمل على إيجادها، ثم جاء يوماً وهز كتفيه وأنكرها، فإن هذا لا يغض من شأن هذه المدرسة» (بنوى، ص 108).

وفى ذات الخصوص، يشير كوكتو إلى أنه قد يكون بمقدور الفنان - وهو يتحسس - أن يفتح باباً سرياً دون أن يفهم أبدأ أن هذا الباب يستر عالماً بأسره. ولكن إذا حق لنا السماح للأديب أن يفصح عما يعن لخلده حتى فى حال عدم اعتداده بمصداقيته، وحتى فى حال عدم اتساقه مع ثوابتنا الأخلاقية، فأية دلالة يمكن عزوها للتمييز بين وجد الفضيلة ووجد الرذيلة؟

* * *

بالبمقدور - نظرياً على أقل تقدير - أن «نفهرس الإنسان كدفتر»، وأن نرى فيه - على طريقة أفلاطون - كائناً مثلث الأبعاد: «عقلاً يستقرئ الحق، وإرادة تستقطب الخير، وحساً يستقطر الجمال» (هوسيمان، ص 1). فى وسعنا أيضاً أن نمعن - على طريقة سانتيانا - فى التوكيد على التمييز بين القيم الثلاث التى أجمع المفكرون على مطلقيتها، بأن نقرر أن الحق يُعقل دون أن يراد أو يحس، وأن الخير يراد دون أن يحس أو يعقل،

وأن الجمال يُحسّ دون أن يعقل أو يراد.

ولكن، أليس من شأن مثل ذلك التثليث أن يكون مدعاة لإساءة فهم وحدة الوعي البشري؟ ألا يجعل من الإنسان أشبه ما يكون بالجهاز ذى الوظائف المتعددة التى لاتمت الواحدة منها للآخرى بأدنى وشيجة؟ وكما يتساءل كمال الحاج، إذا عقل العقل فأصاب، ألا يكون قد أراد وأحس؟ وإذا أرادت الإرادة فأصابت، ألا تكون قد أحست وعقلت؟ وإذا أحس الإحساس فأصاب، ألا يكون عقل وأراد؟ (المرجع نفسه).

* * *

دعونا - بادئ ذى بدء - نعمن النظر فيما أراد سانتيانا الإفصاح عنه بالتوكيد على التمييز بين قيم الحق والخير والجمال. ينكر سانتيانا وجود حلقة تتوسط بين الذات العارفة والشئ الذى تدركه، فإن سئل عن الضامن - الذى نشده ديكارت قدر مانشده سائر فلاسفة المعرفة - والذى يضمن صحة مدركات البشر، أجاب بعبارة واحدة: إنه الإيمان الحيوانى (aminal faith) الكامن فى الإنسان، وهو إيمان يقتضى أن يعتد المرء بكون معرفته الداخلية صورة من عالم خارجى موجود وجوداً حقيقياً.

من البين أن المسوغ الذى يطرحه سانتيانا فى هذا السياق لا يحل الإشكالية الاستمولوجية المطروحة، فمن جهة فإن سبل معرفة البشر بما يحدث فى الواقع قد لاتكون باستمرار جديرة بالثقة، ومن جهة أخرى، فإن فى تسمية ذلك النوع من الإيمان بالإيمان الحيوانى اعترافاً ضمناً بلاعقلانيته.

فضلاً عن ذلك، يعزو سانتيانا إلى ذات الإيمان مهمة التمييز بين حالة الفكرة التى يقابلها فى الخارج شئ عيني، وحالة الفكرة التى لا يقابلها شئ. وكما يوضح زكى نجيب محمود فى معرض تحليله لفلسفة سانتيانا، فإن الفرق بين الوجود العيني - الذى يقابل الأفكار نوات المسميات الخارجية - والوجود الذهنى - الذى يقابل مدلولات الأفكار الأخرى التى نعرف أنه ليس لها مسميات خارجية - فرق جوهرى، وهو نفس الفرق بين ما كان أرسطو قد أسماه بالوجود بالقوة وما كان أسماه بالوجود بالفعل: «فالأول

وجود بالإمكان فقط. مستعد لأن يخرج إلى الفعل إذا ماتوافرت الظروف المواتية، والثاني وجود متعين يتجسد في أشياء واقعية» (زكى نجيب، ص 156).

ثمة فرق آخر يشير إليه سانتيانا في هذا الخصوص، يتعين في كون عدد الموجودات الممكنة لامتناهياً، في حين أن عدد الموجودات الفعلية - المقيدة بالواقع الكائن المتحقق - متناه باسمرار. فضلاً عن ذلك، يؤكد سانتيانا على أن العالم في صورته الواقعة ليس هو العالم الوحيد الذي كان يمكن أن يكون، بل هناك عوالم أخرى لانهاية لعددها يمكن أن نتصور قيامها. [بإختصار فإن العالم الواقعي لايعود أن يكون ممكناً تصادف تحققه، ولذا فإنه مجرد عضو في فئة لا يتناهى عدد أعضائها.]

الحق - من هذا المنظور - هو الممكن الذي تحقق ظهوره بالفعل، بعد أن كان ممكناً بالقوة، وهو أمر عارض لا يحتمه عقل ولا منطق. بكلمات أخرى، ليس هناك ما يستوجب أن تصدق القضايا التي تصادف صدقها، فالحق حين يتحقق إنما يتحقق على نحو عارض.

ولكن، ماذا عن سائر الممكنات (اللامتناهية) التي لم يتصادف تحققها؟ يجيب سانتيانا بقوله إنها تشكل «عالم الروح»، «لأنه العالم الذي يلوذ به الإنسان إذا لم يعجبه العالم المتحقق الواقع. فقد يضيق الإنسان صدرأ بهذا الذي حوله من أشياء ونظم، فأين يكون مأواه إلا أن يلوذ بعالم يصوره بخياله ليعيش فيه؟» (المرجع نفسه، ص 157). هنا بالضبط يتضح سياق قيمتي الخير والجمال، أعنى في الدين والفن؛ إذ [ماذا يصنع الشاعر سوى أن يصور لنفسه جمالاً أصفى وأنقى من أى جمال تصادفه عيناه على هذه الأرض؟... ثم ماذا يصنع الدين سوى أن يصور عالماً خيراً فيه من الخير ما هو أعظم وأسمى من كل خير في هذه الدنيا الواقعة؟ فبالشعر يلوذ الإنسان بجمال يخلقه خلقاً ليعرض له نقص الواقع، وبالدين يلوذ بخير يتمناه ليفقيه عن شر الواقع المشهود» (المرجع نفسه، ص 157 - 158).

بيد أن سانتيانا لا يكتفى بالقول بأن العلم سياق الحق، وبأن الدين سياق

الخير، وبأن الفن سياق الجمال، بل يؤكد على وجوب الكف عن الخط بين هذه القيم المتميزة، وعلى وجوب التمييز بين تلك السياقات المختلفة:

«لا ينبغي لهذا الإنسان الشاعر المتدين أن ينسى أن شعره ودينه هما من عالم الممكنات لا من عالم الواقع، هما من المثل العليا المنشودة لا من دنيا الحقيقة القائمة، هما من «عالم الروح» لامن «عالم الحق»، ولذلك فستظل هذه المثل العليا من جمال وخير رموزاً نهتدى بهديها، لأشياء نداولها ونعالجها فى حياتنا اليومية؛ نعم إن فى هذه المثل العليا غذاء لنفوسنا وخصباً لحياتنا، لكننا إذا زعمنا أنها «حقائق» واقعة، فعندئذ نحط من شأنها، وننزل بها من عالم المثل الأعلى إلى عالم الواقع الأرضى، وعندئذ أيضاً يصبح أمرها خرافة وتخريفاً بعد أن كان هدى ونوراً» (المرجع نفسه).

يتعين علينا إذن ألا نطلب من الجميل أن يكون خيراً، أو من الخير أن يكون جميلاً، أو من الجميل أو الخير أن يكون حقاً، فنحن إن فعلنا إنما نكون قد خلطنا بين المعايير وأسأنا التقدير.

* * *

لنفترض - جـدلاً - أن الحق علاقة تقوم بين نوع بعينه من الجمل - هى القضايا التقريرية (declarative propositions) - وما يشير إليه محتواها من أوضاع. من هذا المنظور يتعين مفهوم الحق فى تلك القضايا التى تقرر أوضاعاً بعينها فى حال تحقق تلك الأوضاع بالفعل، بغض النظر ما إذا كان تحققها مشهوداً. ذلك أن صدق القضية لا يتوقف بأى حال على برائة البشر بصدقها بل يرتفع فحسب بمطابقتها للواقع المتعين. وفى مقابل هذا المفهوم الانطولوجى للحق، قد يكون فى وسعنا الحديث عن الحق بوصفه مفهوماً ابستمولوجياً شريطة أن نماهى بين ماصدقاته وماصدقات مفهوم الاعتقاد المبرر المجمع عليه. ومن البين أن الحق - فى هذا السياق الأخير - يعقل

بدلالة كون ماصدقاته تعبر عن موضع ملائم لإعمال الذهن البشرى لقدراته، ومن البين أيضاً أن المنطق يعد أداة مناسبة قد يكون من شأنها حسم الجدل الناتج عن اختلاف سبل البشر فى إعمال أذهانهم. وفضلاً عن معيار المنطق، لاريب أن للواقع سطوته فى حسم كثير من الأمور.

ولكن، أليس باليمقدور - نظرياً على أقل تقدير - أن يعبر الواقع، بوضعه الذى يرتهن عليه، عما يريد البشر، وأن يكون موضعاً ملائماً للتثمين الاستطائقي؟ إننى لأنكر كون الواقع مغيراً فى العادة لإرادات البشر، فالعالم ليس مدينة فاضلة لايحقق فيها سوى الخير، ولأنكر أن الواقع - من منظوره الجمالى - مدعاة للضجر. فضلاً عن ذلك، فإننى أذهب إلى أن الفن الوصفى عادة ما ينحط عن معايير الإبداع الحقيقى، وإلى أن المبدع لا يبدع إلا فى حال تجاوزه لما يتعين واقعاً ويتجسد حقيقةً ولكن، هل يستلزم هذا الأمر أن الممكن الأخلاقى والممكن الجمالى لا يمتان إلى الحق بصلة، وهل يستلزم كون الحق يعقل دون أن يراد أو يحس؟

لاحظ أن القضايا الباطلة تتعلق بمفهوم الحق - انطولوجياً كان ابستمولوجياً - قدر تعلق القضايا الصادقة، ومن ثم فإن كون عالم الأخلاق يتحدث عن سلوكيات مثالية لايحقق فى الواقع لايغنى بالضرورة أن أحكامه لانتسق مقولياً مع مفهوم الحق. إن هذا الأمر يشير إلى موطن خلل فى التمييز الذى يعقده سانتيانا بين «عالم الروح» أو عالم الإمكانيات التى لم تتحقق و«عالم الواقع» أو عالم الإمكانيات التى تحققت بالفعل؛ ذلك أن هذا التمييز يجعل القضايا الباطلة منتمية إلى عالم الروح، وذلك على اعتبار أن الأوضاع التى تقوم بوصفها ليست واقعية، رغم أن تلك القضايا قد لاتتعلق بذلك العالم إطلاقاً. فضلاً عن ذلك، فإن هذا التمييز يفضى إلى أحكام ينبو عنها العقل؛ هكذا نجد على سبيل المثال أن سانتيانا يقرر أن الحديث عن المثل العليا حال تحققها يحط من شأنها ويجعل أمرها تخريفاً، مغفلاً عدم وجود ما يحول دون أن يكون الخير واقعاً فى مستقبل طال مداه أو قصر. إن علماء الأخلاق يرومون أن تكون مدنهم الفاضلة مدناً

تشديد بالفعل، وإلا ما جدوى التفصيل فى طبائع تلك المدن، كما أنهم يجادلون مستعملين ذات المعيار الذى يعول عليه من ينشد الحق؛ ألا تراهم يجادلون بالبراهين العقلية فى محاولتهم الخلاص إلى أحكامهم الأخلاقية؟

على أن قائلًا قد يقول إن عالم الأخلاق - حين ينظر مبادئه - إنما يعنى بإطلاق أحكام معيارية (prescriptive judgements)، والأحكام المعيارية - لطبيعتها الإنشائية - لا تعد ماصداً ملائماً لمفهوم الحق. عندما يوجه كانت نصيحته بقوله «اعمل بحيث تعامل الإنسانية ممثلة فى شخصك»، فإن ما يقوله ليس عبارة تقريرية بل عبارة قيمية، ومن ثم فإن قوله لا يعد صادقاً ولا باطلاً، شأنه فى ذلك شأن عبارات النهى والاستفهام والتمنى والتعجب وسائر الأساليب الإنشائية. حقاً إن كانت لم يكن ليخلص إلى ما خلاص إليه من أحكام لولا أنه أعمل ذهنه وجادل بعقله، إلا أن الحديث فى سياق الأخلاق غير قابل لأن يكون ماصداً ملائماً لقيمة الحق.

ولكن، أليس بالمقدور - نظرياً على أقل تقدير - إعادة صياغة الأساليب الإنشائية بحيث تعبر عن قضايا تقريرية دون أدنى إساءة لحتواها؟ حين يقرر النحاة وجوب رفع الفاعل، ألا يقررون فى واقع الأمر قضية تقريرية مفادها أنه إذا أراد المرء أن يتحدث كما تحدث العرب الخالص فى الجاهلية فإنه ملزم برفع الفاعل، أو - إذا كانت رائحة المعيارية لاتزال تنبعث من هذه الصيغة - ألا يقررون أن المرء لا يتحدث كما تحدث العرب ما لم يرفع الفاعل. وعلى نحو مماثل، ألا نستطيع إعادة صياغة الأحكام الأخلاقية بطريقة لا تشير بأى شكل لعبارات الوجوب والأمر؟ عندما ينصحنا عالم الأخلاق بوجوب أن نحب لأغيارنا ما أحببنا لأنفسنا، ألا يقرر فى واقع الأمر قضية تقريرية مفادها أن المرء لا يسلك على نحو أخلاقى - وهذا أمر تختلف دلالاته باختلاف نظريات علم الأخلاق - ما لم يحب لغيره ما يحب لنفسه؟ وأخيراً حين يأمرنا المشرع - فى السياقات الدينية - بإقامة الصلاة، ألا يقرر قضية تقريرية مفادها أن المرء لن يفوز بنعيم الجنة، وإن ينجو من جحيم الآخرة، ما لم يقيمها؟

من كل هذا، نخلص إلى أن الإرادة التي يعول عليها في سياق الأخلاق والدين تعمل بدورها على العقل الذي يستقرئ الحق، وأن الفصل بين قيمتي الحق والخير ليس حاسماً بالدرجة التي يزعمها سانتيانا. إن عالم الأخلاق وعالم الدين ليست عوالم وهمية، أو لنقل إن التمييز بين عالم الواقع وعالم الإمكان لا يسوّغ بذاته وهمية ذينك العالمين (الأخلاقي والديني).

* * *

على ذلك، وبغض النظر عن صحة ذلك التمييز، فإن سانتيانا محق في قوله بوجوب عدم تطبيق معايير الحق ومعايير الفضيلة على سياقات الإبداع الفني، رغم أنه يخلص إلى قوله ذاك معولاً على ذات التمييز. ومبلغ ظني أن ذلك الوجوب إنما يرجع إلى طبيعة الفن وطبيعة الإحساس البشري بالقيم الجمالية. بيد أن الحديث عن تلك الطبيعة ليس يبسر الحديث عن عالم الأخلاق، ولعل في إشاراتي العابرة التي استهللت بها هذا الفصل ما يمكن من التعرف على بعض سمات تلك الطبيعة.

* * *

الفصل العاشر

الجائز والمباح

«لا تكون قيمة النتاج أو الإبداع فيما يعكسه من أبعاد الثورة المتحققة ، بقدر ما يكون فيما يختزنه أو يشير إليه من أبعاد الثورة الآتية».

«أدونيس»

والدين

[يلعب الإمكان - الذى يعد ضرباً من ضروب الاحتمال - دوراً لا يستهان به فى السياقات المعيارية - لا سيما الفقهية والنحوية منها - وهذا يتضح على نحو الخصوص فى فكرة الجواز وفكرة الإباحة، وإن لم يقتصر عليهما] وكما أسلفنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، فإن الجائز - على وجه العموم - يفترض وجود جملة من الأحكام المعيارية (normative judgements)، وذلك على اعتبار أن مثل هذه الأحكام عادة ماتعنى بتحديد فئة من السلوكيات التى يتعين على ممارسى النشاط المعنى القيام بها (أو الكف عنها) كيما يكون انتماءهم لهذا النشاط مشروعاً، وعلى اعتبار أن مكمل (complement) تلك الفئة لا يعدو أن يكون سلوكيات جائزة لا يتوقف انتماء أولئك الممارسين لذلك النشاط على قيامهم بها أو عزوفهم عنها. وكما لا يخفى، فإن السلوكيات التى يتوجب القيام بها طبقاً لأى سياق معيارى قد لا تكون على قدر متساوٍ من الأهمية، ومن ثم فإن عدم القيام بها قد لا يؤثر بذات الدرجة فى قدر انتماء تاركها للنشاط المعنى. بكلمات أخرى، [فى الدين كما فى النحو - كما فى أى نشاط معيارى آخر - قد تكون هناك مراتب وأوليات، وفى الدين - على وجه الخصوص - يتعلق هذا الأمر بما يحصل عليه المرء من ثواب أو بما يتعرض له من عقاب.]

هكذا نجد أن السياقات الدينية تنطوي على ذلك القبيل من الأحكام، وهذا بالضبط هو مكن قيام مفهوم الإمكان - المتضمن في فكرة المباح - بدور لا يستهان به في تلك السياقات.

* * *

الحكم الشرعى - أو الحكم المعيارى من وجهة نظر الشرع - هو فى اصطلاح الأصوليين خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين، وهو إما أن يكون تكليفاً يتعلق بفعل المكلف على جهة الطلب أو التخيير، أو أن يكون وضعياً يتعلق بفعل المكلف على جهة الوضع، بمعنى أنه يقتضى وضع شئ سبباً أو مانعاً أو شرطاً لآخر (خلاف، ص 100).

على هذا النحو، تنقسم الأفعال إلى ثلاثة أنواع:

* أفعال مكلفة طلباً، ومثالها الوفاء بالعقود - طبقاً لقوله تعالى «أوفوا بالعقود» - والكف عن السخرية من الآخرين - طبقاً لقوله «لايسخر قوم من قوم». ومن البين أن الفروض والمحرمات تعد من هذا المنظور أحكاماً تكليفية، رغم أنه يترجى التمييز بينهما بخصوص مفهومى الثواب والعقاب؛ ذلك أن الفرض مثاب صاحبه معاقب تاركه، فى حين أن المحرم قد لا يثاب تاركه وإن عوقب مرتكبه.

* أفعال مكلفة تخييراً، ومثالها أخذ الزوج بدلاً من زوجته نظير تطليقه إياها، عملاً بقوله تعالى «فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به». وواضح أن أفعال التخيير قد يثاب عليها - كالصلاة النافلة - وقد لا يثاب عليها - كالصيد بعد التحلل - وإن تشابهت فى عدم تعرض تاركها للعقاب.

* أما الأفعال المكلفة وضعاً - كالقتل بوصفه مانعاً للإرث، عملاً بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «لا يرث القاتل» - فمن البين أنها قد تكون فروضاً يحظى صاحبها بالثواب ويتعرض تاركها للعقاب، وقد تكون محرمات يتعرض صاحبها

للعقاب وقد يحظى تاركها بالثواب.

فى المقابل، الحكم الشرعى فى اصطلاح الفقهاء هو الأثر الذى يقتضيه خطاب الشارع فى الفعل، ولذا فإنه إما أن يكون واجباً أو مندوباً أو مباحاً أو مكروهاً أو محرماً (المرجع نفسه، ص 100 - 105).

هذا على المستوى الشرعى، أما على المستوى المنطقى - أى على مستوى الإمكان النظرى - فيمكن تقسيم الأفعال على النحو التالى:

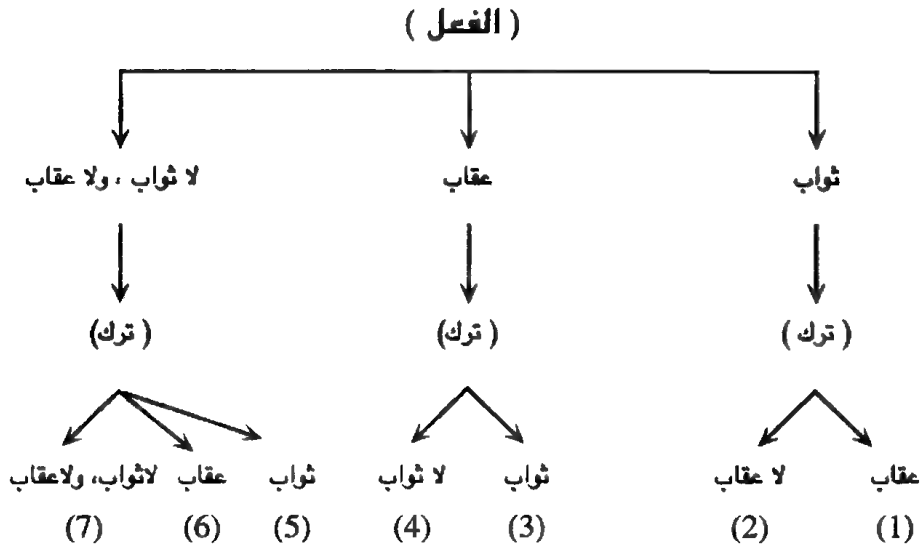
- (أ) 1 - أفعال يثاب عليها ويعاقب عليها.
- 2 - أفعال يعاقب عليها ويعاقب على تركها.
- 3 - أفعال يثاب على تركها ويعاقب على تركها.
- 4 - أفعال يثاب عليها ويثاب على تركها.

واضح أنه بالإمكان الاستطراد فى التفصيل فى هذا النوع من الأفعال، فالنمط الأول على سبيل المثال قد ينقسم بدوره إلى أفعال يثاب على تركها ولا يعاقب على تركها، وأفعال يثاب على تركها ويعاقب عليه أيضاً. من الواضح أيضاً أن كل هذه الأفعال - وإن أمكنت على المستوى المنطقى - تعد مستحيلة على المستوى الشرعى، وذلك على اعتبار أن وجودها لا يتسق وعدالة أى مشروع، بله المشرع العادل.

- (ب) 1 - أفعال يثاب عليها ويعاقب على تركها.
- 2 - أفعال يثاب عليها ولا يعاقب على تركها.
- 3 - أفعال يعاقب عليها ويثاب على تركها.
- 4 - أفعال يعاقب عليها ولا يثاب على تركها.
- 5 - أفعال لا يثاب عليها ولا يعاقب عليها، ويثاب على تركها.
- 6 - أفعال لا يثاب عليها ولا يعاقب عليها، ويعاقب على تركها.

7 - أفعال لا يثاب عليها ولا يعاقب عليها، ولا يثاب على تركها، ولا يعاقب على تركها.

هذا النمط من الأفعال الممكنة على المستويين الشرعي والمنطقي ناتج عن التقسيم التالي:



الأمثلة التالية توضح هذه الأنواع:

- (1) الفرض، ومثاله إقامة الصلاة التي يثاب عليها فعلها ويعاقب على تركها.
- (2) المنتوب، ومثاله صلاة الجماعة التي يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها.
- (3) بعض المحرم، كالإذعان لهوى النفس حال التمكن الذي يعاقب على فعله ويثاب على تركه.
- (4) بعض المحرم، كالزواج من الأختين الذي يعاقب على فعله ولا يثاب على تركه.

- (5) كأخذ الدية الذي لا يثاب ولا يعاقب على فعله ويثاب على تركه.
- (6) كالوفاء بالنذر، الذي لا يثاب ولا يعاقب على فعله، ويعاقب على تركه.
- (7) بعض المباح، كالصيد بعد التحلل الذي لا يثاب ولا يعاقب على فعله، ولا يثاب ولا يعاقب على تركه.

* * *

يقرر الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه «تكوين العقل العربي» أنه «إذا جاز لنا أن نسمى الحضارة الإسلامية بإحدى منتجاتها فإنه سيكون علينا أن نقول عنها إنها «حضارة فقه»، وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على الحضارة اليونانية حينما نقول عنها إنها «حضارة فلسفة» وعلى الحضارة الأوروبية المعاصرة حينما نصفها بأنها «حضارة علم وتقنية» (الجابري، ص 96). لقد كان الفقه - على حد تعبير الجابري - «أعدل الأشياء قسمة بين الناس في المجتمع العربي الإسلامي، كما أن هذا الفرع من فروع العلم كان قد احتل الدرجة الأولى دون منازع في المنتجات الفكرية لتلك الحضارة. غير أنه يتعين علينا أن نميز - فيما يضيف الجابري - بين نوعين من الفقه، الفقه العملي والفقه النظري:

«ففي زمن النبي والصحابة وحتى أواخر العهد الأموي، كان الفقه واقعياً لانظرياً، فإنما كان الناس يبحثون عن حكم الحوادث ويسألون عنها بعد وقوعها أو يتقاضون فيها فتعالج بالحكم الذي تقتضيه الشريعة ولم تكن الحوادث تفترض افتراضاً» أما بعد ذلك وابتداء من عصر التنوين فلقد «أصبح الفقه يثمر من النظر والافتراض أكثر مما يثمر من الوقائع والفعل». لقد أصبح الفقه أشبه ما يكون برياضة ذهنية تفترض فيها الحوادث افتراضاً ويبحث لها عن حلول... وفي عملية الافتراض تلك لم يكن الفقهاء يتقيدون «بالممكن الواقعي»، بل لقد ذهبوا مع «الممكنات الذهنية» إلى أبعد مدى.. إن علم الموارد (الفرائض) كان أقرب إلى

الرياضيات من أى علم آخر فى الثقافة العربية.. إننا نكاد نجزم بأن
«الجبر العربى» يدين فى وجوده للفقه والفقهاء» (المرجع نفسه، ص - 99
(98).

وفى هذا الخصوص نود أن نشير إلى أن وجوب وجود فرع معرفى متكامل
لايعنى فحسب بما يشيع من سلوكيات بل يهتم أيضاً بما يمكن القيام به منها أمر
يستدعيه كون الدين قانوناً للمعاملات البشرية بشتى ضروبها. بيد أن هذا الأمر بذاته
ليس مدعاة للإمعان فى تفصيل هذا الفقه الافتراضى، إذ يتعين أن توجد سبل للقياس
على الأحكام والأصول والعامة تعفى الفقهاء من مهمة البت فى شأن كل سلوك
افتراضى، وهى مهمة لاسبيل لاستكمالها وذلك على اعتبار لاتناهى عدد السلوكيات
الافتراضية. إن مصالح البشر - فيما يقرر عبد الوهاب خلاف - «لا تنحصر جزئياتها
ولاتتناهى أفرادها وإنما تتجدد بتجدد أحوال الناس وتتطور باختلاف البيئات، وتشريع
الحكم قد يجلب نفعاً فى زمن وضرراً فى آخر، وفى الزمن الواحد قد يجلب نفعاً فى
بيئة ويجلب ضرراً فى بيئة أخرى» (خلاف، ص 84). وبطبيعة الحال، فإن تفصيلات
الفقه الافتراضى قد لاتكون كلها جديرة بعناء البت فى أمرها، وقد يكون العناء بأمرها
على حساب قضايا أكثر أهمية لاسيما فى حال اعتبار إمكان القياس على الأحكام
العامة.

* * *

الجواز النحوى ضرب آخر من ضروب الممكن، وهو يعبر عن ظاهرة أصيلة فى
بناء النحو العربى المعيارى، ولا يمثل عند النحاة شنوذاً عن القواعد، ولذا فإنه يتقابل
مع ما يخضع صراحة لتلك القواعد، قدر ما يتقابل مع الشنوذ الذى يمثل خروجاً عنها
ويحتاج إلى تأويل كيما يطرد معها (الطلحى، ص 87). وإذا اقتصرنا على مفهوم
الاسم، نعثر على التصنيف التالى:

1 - أسماء لا تقبل سوى الرفع كالفاعل والمبتدأ.

2 - أسماء لا تقبل سوى النصب، كالحال المفردة.

3 - أسماء لا تقبل سوى الجر، كالمضاف إليه.

4 - أسماء تقبل الرفع والنصب، كخبر ما (ما هذا بشراً، ما هذا بشراً) والمفعول به عند بناء الفعل للمجهول (ليجزي قوم، ليجزي قوماً) والاسم التالى ليس («ليس البرّ أن تولوا وجوهكم...»، وأما الجود منك فليس جوداً).

5 - أسماء تقبل الرفع والجر، كالاسم المعطوف على جملة فعلية مصدرية بمذ (مذ يومان، مذ يومين).

6 - أسماء تقبل النصب والجر، كالاستثناء بحاشا، وتابع المستثنى بسوى.

7 - أسماء تقبل الرفع والنصب والجر، كقول عمر رضى الله عنه «إنا لا ندخل كنائسهم من أجل التماثيل التى فيها ، الصور» حيث تجر «الصور» على البدل، وتنصب على إضمار فعل، وترفع على إضمار مبتدأ.

وواضح أن الاسم لا يقبل الجزم نحواً على إمكان الجزم على المستوى المنطقي.

هذا بالنسبة للأسماء؛ أما بخصوص الأساليب فإن تقسيمها قد يتعدد على نحو يصعب حصره، ولعل الصفة المشبهة خير شاهد يستدل به على هذا الأمر. لقد تسنى للخضرى - فى حاشيته على شرح ابن عقيل - أن يعدد أربعة عشر ألفاً وأربعمائة شكل ممكن منطقياً من شكول تلك الصفة، مشيراً إلى تعذر مائة وأربعة وأربعين منها على المستوى النحوى (الطلحي، ص 226). أما الخليل ابن أحمد فقد «أخذ يركب الحروف الهجائية العربية بعضها مع بعض مثنى وثلاث ورباع مستنفذاً فى ذلك كل التراكيب الممكنة.. مسقطاً المكرر منها، إلى أن تم له استخراج جميع الألفاظ التى يمكن أن تتركب من الحروف الهجائية العربية... فبلغت حسب ما نقله بعض المؤرخين (12305412) لفظاً» (الجابرى، 1، ص 82).

وغنى عن البيان أن الاستطراد فى سرد هذه الإمكانات هو من قبيل سرد

الممكن نحواً، وأن إمكان التعدد ها هنا إنما يرجع إلى إمكان تعدد الألفاظ والأساليب -
التي يستطيع متحدث العربية استعمالها - على نحو لامتناهٍ. وكما أسلفنا، فإن الإبداع
الحقيقي لا يكمن في تعدد الإمكانيات قدر كمونه في تحديد ما يستحق منها عناء
التحقق. وبطبيعة الحال، ليس بالمقدور - بشكل مسبق - البت في أمر ما يستحق ذلك
العناء، فالسياقات تختلف، والمقاصد تتنوع، وقد يتعذر وجود حد أدنى يتعين استيفاؤه
في كل السياقات.

* * *

خاتمة الكتاب

هكذا اطلعنا على جملة من السياقات التي يرد فيها لفظ الاحتمال، وهكذا تسنى لنا أن نرى كيف أن هذا المفهوم يتجذر في مختلف أنشطة البشر. ولنا - للتوكيد على أصالة وخصب هذا المفهوم وعلى الوشائج الأصرة التي تقوم بينه وبين بشرية البشر - أن نتخيل الحياة التي كان يمكن أن تكون عليها حيواتهم لو كان بمقدورهم الخلاص تماماً من ذلك المفهوم. هنا نتذكر ثانية عبارة كارنتزاسكي القائلة بوجوب أن نعمل أذهاننا كيما لا يحولنا اليقين إلى حمقى. هب أننا نعرف - بيقين تام وبشكل مسبق - مترتبات كل سلوك نقوم به، وأنه في وسعنا أن نتوقع - على نحو جازم - كل السلوكيات التي سوف يقوم بها الآخرون. بكلمات أخرى، هب أن المستقبل برمته قد أُمِط اللثام عن نفسه، فاستبينت كل تفاصيله، بحيث لم يعد لمفهوم الاحتمال أى ماصدق يتعين فيه. أية إثارة ستنتلوى عليها حيواتنا، وأى نوع من الكائنات جدير بالثناء سنكون؟ هل سیتسنى لكائنات كتلك أن تمارس أى نمط من الإبداع؟ وهل سيكون بمقدورها الإفصاح عن أية قدرات خلاقية؟ مبلغ ظنى أنها لن تستحوذ أصلاً على مثل تلك القدرات، وأنها ستكون أشبه ما تكون بالأجهزة التي تؤدي وظائفها على أكمل وجه.

وبطبيعة الحال، ستمارس نواميس الكون سلطتها على مثل هذه الأجهزة، وسيقت الزمن في عضدها فتصاب بالعطب بمجرد انتهاء عمرها الافتراضي.

تأمل معى هذه القصيدة الرائعة لخليل حاوى، وتساعل معى:

* إذا كانت الأجهزة البشرية تتطبع بالطباع التى أتينا على ذكرها، أكون بمقدورها أن تنتج عملاً إبداعياً كهذا؟

* وإذا كانت الحياة - كما يصورها حاوى - جحيماً وهى تحفل بما تحفل به من إمكانات، فكيف سيكون حالها لو أن أغلال الواقع قد كبلت يديها وأوثقت قيودها؟

* وهل بمقدور المرء أن يبدع هكذا إبداع فيما لو أذعن لثوابت الواقع، أم أن المبدع لا يبدع ما لم يتمرد عليها ويكابذ أمر تعيين الإمكانيات التى تستحق عناء التحقق؟

بعد أن طوف على الشاطئ الغربى، واكتوى بأواره، ها هو صاحبنا يعود للشرق العريق، عله يجد فيه مطرحاً تستكين فيه أعصابه الحرى ويللم فيه رؤاه:

«بعد أن عانى دوار البحر

والضوء المداجى عبر عتبات الطريق

ومدى المجهول ينشق عن المجهول

عن موت محيق

ينشر الأكفان زرقاً لغريق

وتمطت فى فراغ الأفق أشداق كهوف

لفها وهج الحريق

بعد أن راوغه الريح

أسلمه الريح

للشرق العريق

* * *

حط فى أرض حكى عنها الرواة

حانة كسلى ، أساطير ، صلاة

ونخيل فاتر الظل رضى الهينمات،

مطرح رطب يميت الحس فى أعصابه الحرى
يميت الذكريات،
والصدى النائى المدوى
وغوايات الموانى النائيات
آه لو يسعفه زهد الدراويش العراة
دوختهم حلقات الذكر فاجتازوا الحياة
حلقات ، حلقات،
حول درويش عتيق
شرشت رجلاه فى الوحل وبات
صامتاً يمتص ما تنتضحه الأرض الموات
فى مطاوى جلده ينمو طفيلى البنات
طحلب شاخ على الدهر ولبلاب صفيق
غائب عن حسه لا يستفيق
حظه من موسم الخصب المدوى فى العروق
رقع تزرع بالزهو الانيق
جلده الرث العتيق
* * *

- هات خبر عن كنوز سمرت عينيك فى الغيب العميق
- قابع فى مطرحى من ألف ألف
قابع فى ضفة «الكنج» العريق
طرقات الأرض مهما تتناعى
عند بابى ينتهى كل طريق
وبكوضى يستريح التوأمان :
الله والدهر السحيق

وأرى، ماذا أرى،
موتاً، رماداً، وحريق،
نزلت فى الشاطئ الغربى،
حديق، ترها، أم لا تطيق؟
ذلك الغول الذى يرغى،
فيرغى الطين محمومًا، وتنحمر الموانى،
وإذا بالأرض حبلى تتلوى وتعانى،
فورة فى الطين من أن لأن،
فورة كانت أثينا ثم روما،
وهج حمى حشرجت فى صدر فان،
خلفت مطرحها بعض بثور،
ورماد من نفايات الزمان،
ذلك الغول المعانى
ما أراه غير طفل من مواليد الثانى
ويداً شمطاء من أعصابه تنسل
أكفاناً له،
والموت دانى.
وترانى،
قابلاً فى مطرحى من ألف ألف
قابلاً فى ضفة الكنج العميق،
طرقات الأرض مها تتناهى
عند بابى ينتهى كل طريق،
وبكوى يستريح التوأمان:
الله ، والدهر السحيق.

أترى حملت من صدق الرؤى ما لا تطيق؟

* * *

- خلنى ، ماتت بعينى منارات الطريق.

خلنى أمض إلى ما لست أدرى.

لن تفاوينى الموانى النائيات ،

بعضها طين محمى

بعضها طين موات

أه كم أحرقت فى الطين المحمى

أه كم مت فى الطين الموات

لن تفاوينى الموانى النائيات

خلنى للبحر ، للريح، لموت

ينشر الأكفان زرقاً لغريق

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذاك الضوء فى عينيه مات

لا البطولات تنجيه، ولا ذل الصلاة».

* * *

لو لم يكن ثمة محتمل، لو كان اليقين ينشب أظافره فى فؤاد حاوى، أترى كان

بمقدوره أن يمضى إلى ما ليس يدري؟ ألا ترى أن خلاص الشاعر إنما يكمن فى

الارتحال إلى « آفاق المحتمل»، عله يجد فيها ما ظمأت إليه روحه؟

أما أمل دنقل، فإنه يحدثنا عن نوعين من أنواع الطيور، ولكأنى به يحدثنا عن

نوعين من أنواع البشر: بشر أقعدتهم ثوابت الواقع فارتهنوا بقيودها، وآخرون تمرّدوا

عليها فانتعقوا من أغلالها. لقد خلق الله للطيور أجنحة كيما تطير بها، وخلق الله للبشر

الخيال لذات المقصد؛ لكن هناك طيور داجنة بقدر ما هناك بشر داجنة:

«الطيور مشردة فى السموات

مشردة

ليس لها أن تحط على الأرض

ليس لها

غير أن تتقاذفها فلوات الرياح

ربما تنزل

تتنزل كي تستريح دقائق

فوق النخيل

النجيل

التماثيل

أعمدة الكهرباء

خوافى الشبابيك والمشربيات

والأسطح الخرسانية

اهدء

اهدء

ليلتقط القلب تنهيدة

والفم العذب تغريدة

والقط الرزق

القط الرزق

سرعان ما تتفزع

تتفزع من نقلة الرجل

من نبلة الطفل

من ميلا الظل عبر الحوائط

من حصوات الصياح.

* * *

الطيور معلقة فى السموات
فى يد العنكبوت الفضائى للريح
مرشوقة فى امتداد السهام المضيئة للشمس
رفرِف،
رفرِف،
فليس أمامك والبشر المستباحون
والمستباحون
صاحون،
ليس أمامك غير الفرار
الفرار الذى يتجدد كل صباح
* * *

والطيور التى أقعدتها مخالطة الناس
مرت طمأنينة العيش فوق منائرهما،
فانتخت
وبأعينها،
فارتخت
وارتضت
أن تقاها حول الطعام المتاح
ما الذى يتبقى لها
غير سكينه الذبح
غير انتظار النهاية
إن اليد الأدمية واهبة القمح
تعرف كيف تسل السلاح
* * *

الطيور ، الطيور ، تحتوى الأرض جثمانها فى السقوط الأخير
والطيور التى لا تطير
طوت الريش واستسلمت
هل ترى علمت
أن عمر الجناح
قصير قصير
الجناح حياة
والجناح ردى
والجناح نجاة
والجناح سدى»

* * *

حقاً إن الجناح سدى ما لم تكن للاحتمال أفاق !

* * *

لكن مطلب الاحتمال ليس ضرورياً فحسب للبوح عن إبداعات النشاط الفنى، بل يسرى الأمر ذاته على أنشطة البشر الأخرى. لقد أشرنا إلى الدور الذى يقوم به الاحتمال فى سياق القوانين العلمية وفى تحديد طبائع النشاط العلمى، وسوف أختتم هذه الخاتمة بحديث مقتضب عن دوره فى النشاط الدينى.

لن أعنى هنا بمفهوم الجواز حين يرد فى السياقات الفقهية، فقد عنيت به فى الفصل الأخير، فضلاً عن أنه بالإمكان أن تكون هناك أديان وضعية أو سماوية لا تقر نصوصها إلا ما يتوجب القيام به من طقوس، بحيث لا تتساوى الأطراف، ولا يكون بالمقدور القيام بسلوكيات مغايرة. ولكن هب أن أفعال البشر قد قدرت عليهم سلفاً وأنه لا يتسنى لهم القيام إلا بما يقومون به بالفعل. أترى - فى مثل هذا السياق - سيكون لفكرة الحساب - التى تعول عليها كل الأديان - دلالة تتسق وصفة العدل المطلق التى

تعزى للذات الإلهية؟ هذا لا يعنى أن إشكالية القضاء والقدر - أو إشكالية الحرية البشرية - غير قابلة لأن تثار إلا فى مثل ذلك السياق. حقاً إنها تثار حتى فى سياق علم الله المسبق بمستقبل أفعال البشر وجهلهم بكنه تلك الأفعال؛ لكنها - حال إثارتها فى هذا السياق الأخير - قابلة لأن تحل بمجرد التمييز بين مفهوم الحرية الانطولوجية ومفهوم الحرية الابستمولوجية، وهذا أمر كنت أسهبت فى تفصيله فى موضع آخر (الحصادى، 3، ص 99 - 110).

فضلاً عن ذلك، فإن ثمة ما يعرف فى الأدبيات الدينية بالفقه الافتراضى، وهو علم كان علماء الإسلام قد أمعنوا فى تفصيله. الفكرة الأساسية التى يعول عليها هذا الفقه مفادها أن النصوص الدينية متناهية، فى حين أن المواقف البشرية التى قد يتعرض لها البشر غير قابلة للحصر. النهج المستعمل فى هذا العلم هو القياس بين المواقف المنصوص عليها وتلك التى يمكن حدوثها، والإفتاء بشأن هذه المواقف الأخيرة بطريقة تتسق وتلك النصوص.

من البين أن إمعان علماء الإسلام فى تفاصيل ذلك العلم لا يعدو أن يكون نتيجة متوقعة للاتناهى مجاله، فلا حد يحد الاحتمال سوى المحال أو قصور الخيال. من البين أيضاً أن ذات الأمر يسرى بنفس القدر على النحوى القواعد متناهية العدد وعلى الأساليب الممكنة التى قد يتحدث بها البشر، الأمر الذى يفسر بدوره إمعان النحاة فى تفصيل علومهم.

على ذلك، يتعين ألا نشتط فى تجيل مفهوم الاحتمال، فلاريب أن للإمعان فى مثل تلك التفاصيل مترتبات قد لاتحمد عقباها. لقد ترهل النحو العربى على نحو ينبو عنه الذوق واكتض بجزيئات لم تكن فى واقع الأمر جديرة بعناء التقنيين، وهذه نتيجة تساهم إلى حد كبير فى تفسير العناء الذى يلاقيه متعلمو اللغة العربية، فضلاً عن أن الانشغال بفن الممكن فى سياق ضرب بعينه من ضروب المعرفة قد يكون بالفعل على حساب الانشغال بذلك الفن فى سياقات معرفية أخرى ليست أقل جدارة بالاهتمام من

النحو والفقه، كالعلوم الطبيعية والفنون بمختلف أنواعها والتقنية التى أضحت مقياساً لمدى قدرة الشعوب على السيطرة على مقدرات بيئاتها. إن الفارق بين التقدم الذى أحرزه العرب فى ذينك الفرعين من فروع المعرفة، والتقدم الذى أحرزوه على المستويات العلمية والفنية والتقنية فارق لا تكاد تخطئه العين، ولعل ما أشرت إليه فى هذا المقام يفسر جزئياً على أقل تقدير لماذا أضحى حالنا على ما هو عليه.

لقد كرس الموروث العربى فكرة التجويز، التى تتناقض صراحة مع فكرة الحتمية التى يقوم عليها العلم، حتى تسنى لهم النبوغ فى فروع المعرفة التى تعول عليها (الفقه، النحو، التنجيم، القيافة، الفراسة، ...)؛ وما هو أبو حامد الغزالى، بعد أن أنهى عرض «علوم القشرة» و«علوم الألباب»، يقول:

«ولعلك تقول إن العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الإنسان وتشريح أعضائه... فاعلم أنا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التى لا بد من وجود أصلها فى العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه. أما هذه العلوم التى أشرت إليها فهى علوم، ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد ولذلك لم نذكرها» (الجابرى، ص 289).

هكذا لم يعد لغير الفقه والنحو أى مكان فى هذا التصنيف الذى اعتد به الكثير من علماء العرب، وهكذا - فيما يقرر الجابرى - «انتصر «العقل المستقيل» فى الغزالى على كل نبضات عقله.. لقد انتصرت فيه الهرمسية الهاربة من الدنيا على الفقيه المتكلم المناضل... فهل نحتاج بعد هذا إلى القول بأن انتصار «العقل المستقيل» فى الغزالى قد خلف جرحاً عميقاً فى العقل العربى ما زال نزيفه يتدفق، ويشكل ملموس، من كثير من العقول العربية إلى الآن» (المرجع نفسه، ص 289 - 290).

* * *

بين المحاور

أولا: المصادر العربية:

- 1 - أدونيس: «مقدمة للشعر العربي»، بيروت، دار العودة، 1983.
- 2 - بدوي، عبد الرحمن: «فى الشعر الأوروبى المعاصر»، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965.
- 3 - الجابرى، محمد عابد: «تكوين العقل العربى: نقد العقل العربى (1)»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1989.
- 4 - الحاج، أنسى: «أصدق ما فى الحب قاتله»، لندن، مجلة الناقد، العدد (54)، 1992، ص 4 - 5.
- 5 - الحصادى، نجيب: (1) «تقريظ العلم»، 1990،
(2) «نهج المنهج»، 1991،
(3) «معيّار المعيار»، 1992،
(4) «ليس بالعقل وحده»، 1992،
مصراته، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

(5) «أسس المنطق الرمزي المعاصر»، بنغازي، دار النهضة

العربية، بيروت، 1993.

6 - خلاف، عبد الوهاب: «علم أصول الفقه»، الكويت، دار القلم، 1983.

7 - ديورانت، ول: «قصة الفلسفة»، ترجمة: فتح الله المشعشع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1966.

8 - الطلحي، مراجع: «الجواز النحوي ودلالة الإعراب على المعنى»، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1989.

9 - عبد المعطى، على: «فلسفة الفن: رؤية جديدة»، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.

10 - سامون، ويسلى: «المنطق»، ترجمة: جلال موسى، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1986.

11 - كازنتزاكي، نيكوس: (1) «الطريق إلى غريكو»، 1980.

(2) «تقرير إلى غريكو»، 1983.

ترجمة: ممدوح عدوان، بيروت، مكتبة النهضة العربية.

12 - نجيب، زكى: «من زوايا فلسفية»، بيروت، دار الشروق.

13 - هوسيمان، دنى: «علم الجمال»، ترجمة: ظافر الحسن، تقديم: كمال الحاج، بيروت، منشورات عويدات، 1983.

* * *

- 1 - J. L. Austin: "Other Minds", Proceedings of the Aristotelian Society, Supplementary Volume XX (1946).
- 2 - I. Berlin: "The Crooked Timber of Humanity", Henry Hardy (ed.), Fontana Press, Glasgow, England, 1990.
- 3 - C. Hempel: "Probabilistic Explanation", in "Readings in the Philosophy of Science", B. Brody (ed.), Prentice - Hall, Inc., Englewood cliffs, New Jersey, U.S.A., PP. 28 - 38.
- 4 - T. Kuhn (1): "Logic of Discovery or Psychology of Research", in "Criticism and the Growth of Knowledge", I. Lakatos & A. Musgrave (eds.), Cambridge University Press, U.S.A., 1970.
- 5 - T. Kuhn (2): "The Structure of Scientific Revolutions", Second edition, Dickenson Publishing Co., Inc., 1972.
- 6 - I. Lakatos: "Methodology of Scientific Research Programmes", in "Criticism and the Growth of Knowledge", I. Lakatos & A. Musgrave (eds.), Cambridge University Press, U.S.A., 1970.
- 7 - E. Partridge: "Usages and Abusages" Penguin Books, Middlesex, England, 1980.
- 8 - K. Popper: "Objective Knowledge: An Evolutionary Approach", Clarendon Press, Oxford, 1972.
- 9 - F. Waisman: "How I See Philosophy", in "Logical Positivism", A. J. Ayer (ed.), MacMillan Publishing Co., Inc., N.Y., U.S.A., 1970, PP. 345 - 380.
- 10 - A. B. Wolf: "Functional Economics", in "The Trend of Economics", R. G. Tugwell (ed.), Alfred A. Knop, Inc., 1924.

* * *